عزت السيد أحمد

نحو سلوك تربوي عربي جديد

دار الفكر الفلسفي

للدراسات والترجمة والنشر

عزت السيد أحمد

مكيافيلية ونيتشوية تربوية

نحو سلوك تربوي عربي جديد

دار الفكر الفلسفي
للدراسات والترجمة والنشر

. الكتاب: مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربويَّة:

نحو سلوك تربوي عربي جديد.

. المؤلِّف: عزَّت السَّيد أَحمد.

. الطَّبعة الأُولى : ١٩٩٨م.

. م: ٤١٥٢٥ تاريخ ١٥/١/ ١٩٩٨م.

. ٦٠ صفحة، قياس ب ٥ (١٧,٥x ٢٤,٥).

. النَّاشر: دار الفكر الفلسفي للدِّراسات والتَّرجمة والنَّشر.

دمشق . ص.ب: ١٢١٥٧ . هاتف: ٦٦١٢٤٠٢ .

جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر الفلسفي

الإهـداء

إلى أُمَّتي وهي أَحوج ما تكون إلى لمِّ الشَّمل، ورأب الصُّدوع، والنَّظر إلى وحدة الانتماء والمصير، والتَّخطيط للمرحلة القادمة.

عزت

إنَّ من لا يعرف دروس ثلاثة آلاف عام

يعيش فقط من يومٍ إلى يوم .

جوته

مدخـــل

تَقِفُ أُمَّتُنا العربيَّةُ أَمامَ تَحدِّياتٍ تهدِّدُ مستقبلَهَا، على الأَقلِّ: أَوَّلها تخلُّفنا المأساويُّ الَّذِي نُعَانِي مِنْهُ، وَيَقِفُ حَجَرَ عَثرَةٍ فِي طَرِيقِ تطوُّرِنَا، وثانيها سَعيُ المجتمعاتِ الْمُتَقَدِّمةِ إلى مَنْعِنَا مِن أَيِّ تَقدُّمٍ نَسْتَطِيعُ تَحْقِيقَهُ، وَثَالِثُهَا يَكْمُنُ فِي بُعدِ عَقْلِيَّتِنَا الْمُعَاصِرَةِ عَن الرُّوحِ الْحَضَارِيَّةِ، فَهِيَ غَيْرُ قَادِرَةٍ عَلَى تَحْقِيقِ التَّقَدُّمِ، وَلاَ عَلَى نَقْلِنَا مِنْ حَالِنَا السَّيِّئَةِ إِلَى حَالٍ تَفْضُلُهَا.

مِنْ دُونِ أَيِّ نِقَاشٍ أَو جَدَلٍ: لَيْسَ هَذَا هُوَ الوَضْعُ الطَّبِيعِيُّ أَو السَّلِيمُ لأُمَّتِنَا لأَنَّهَا أُمَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَشَعْبُهَا خَلاَّقٌ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ السُّؤَالَ الْمَطْرُوحَ الآنَ:

كَيْفَ نُصَحِّحُ هَذَا الْوَضْعَ؟ أَو بِمَعْنًى آخَرَ: كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَعِيدَ دَوْرَنَا فِي صُنْعِ الْحَضَارَةِ ؟

إِذَا انْتَظَرْنَا الْمَسَارَ الْعَادِيَّ وَالطَّبِيعِيَّ لِلتَّقَدُّمِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّنَا سَنَنْتَظِرُ طَوِيلاً جِدًّا، لأَنَّ الأُمَمَ فِي سِبَاقٍ دَائِمٍ مَعَ الزَّمَنِ مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَ بَعْضِهَا بَعْضاً مِن الْجِهَةِ الأُخْرَى، وَكُلُّهَا يَضَعُ

مَا اسْتَطَاعَ مِن الْعَرَاقِيلِ أَمَامَ تَقَدُّمِ الأُمَمِ الأُخْرَى وَتَطَوُّرِهَا؛ وَهَذَا هُوَ السُّلُوْكُ الطَّبِيعِيُّ لِلأُمَمِ الْمُتَصَارِعَةِ عَلَى القِمَّةِ.

وَلِذَلِكَ عَلَينَا أَنْ نَبْحَثَ عَنْ أَفْضَلِ الْمَنَاهِجِ وَالسُّبُلِ الَّتِي تُمَكِّنُنَا مِن النُّهُوضِ مِنْ مَآسِينَا الْمُخْتَلِفَةِ. فَمَا عَسَى هَذَا الْمِنْهَجُ أَنْ يَكُونَ ؟

إِنَّ الطَّرِيقَةَ الْمُثْلَى، فِي الظُّرُوفِ الرَّاهِنَةِ، تَكْمُنُ فِيْمَا دَعَوْنَاهُ: الْمِكْيَافِيلِّيَّةِ وَالنِّيتشَوِيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ لِتَأصِيلِ سُلُوكٍ تَرْبَوِيٍّ عَرَبِيٍّ جَدِيدٍ، الَّذِي يَعْنِي فِي مُجْمَلِ الْقَوْلِ وُجُوبَ اتِّبَاعِ أَيِّ طَرِيقٍ مِن أَجْلِ بِنَاءِ الإِنْسَانِ الْعَرَبِيِّ الْخَارِقِ، عَلَى طَرِيقِ بِنَاءِ أُمَّةٍ عَرَبِيَّةٍ قَوِيَّةٍ، قَادِرَةٍ عَلَى فَرْضِ ذَاتِهَا وَإِرَادَتِهَا عَلَى الْعَالَمِ بِوَصْفِهَا قُوَّةً يَنْبَغِي أَنْ يُحْسَبَ حِسَابُهَا وَيُرْهَبَ جَانِبُهَا. وَفِي مَحْضِ الْوَاقِعِ فَإِنَّ هَذَا حَقٌّ طَبِيعِيٌّ لَنَا، وَلاَ نُرِيدُ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَينَا بِهِ، وَلاَ نَسْمَحُ لأَحَدٍ أَنْ يعَتَرِضَ عَلَينَا بِشَأنِهِ؛ يَجِبُ أَنْ نُحَقِّقَهُ وَنَصْنَعَهُ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي نَخْتَارُهَا أَوْ نَرَاهَا مُنَاسِبَةً لَنَا.

عزَّت السَّيد أَحمد

دمشـــــق ـ معضَّميَّة الشَّـــام
في الأَحــد ١٢ شــعبان ١٤١٧هـ
الوافق لـ ٢٢ كانون الأَول ١٩٩٦م

مسوِّغات
المكيافيليَّة والنِّيتشويَّة

لِمَاذَا اخْتَرْنَا المِكْيَافِيلِّيَّةَ وَالنِّيتْشَوِيَّةَ وَلَمْ نَخْتَرْ مُصْطَلَحاً آخَرَ أَو عَلَماً عَرَبِيًّا؛ تُرَاثِيًّا أَو مُعَاصِرَاً ؟! هَذَا مَا قَدْ يَحْتَجُّ بِهِ عَلَينَا بَعْضُ المُتَعَصِّبِينَ لِلتُّرَاثِ.

بَدَاءَةً أُعْلِنُ أَنَّهُم لَيسُوا أَشَدَّ مِنِّيَ تَعَصُّبَاً لِلتُّرَاثِ، وَلَيسَ المْنْعَتِقُونَ مِنَ التُّرَاثِ أَشَدَّ مِنِّيَ انْعِتَاقَاً مِنْ أَسْرِهِ!! أَنَا لاَ تَهُمُّنِي الأَسْمَاءُ، وَلاَ الشَّخُوصُ؛ تَهُمُّنِي الأَرْقَامُ، تَهُمُّنِي النَّتَائِجُ: أُرِيدُ أَنْ تَنْهَضَ أُمَّتِي مِن كَبْوَتِهَا وَسُبَاتِهَا اللَّذَينِ لَجَمَا العُقُولَ، وَكَبَّلا الأَيدِي، وَغَلاَّ الأَعْنَاقَ، وَلِذَلِكَ فِي مُكْنَتِكُم أَنْ تَضَعُوا مَكَانَ **مِكْيَافِيلِّي** Machiavelli . وَ**نِيتْشِه** Nietzche . مَاشِئْتُم مِنَ الأَسْمَاءِ وَالرُّمُوزِ وَالأَشْيَاءِ، وَحَتَّى الشَّيَاطِينِ وَالأَبَالِسَهِ ... وَلَكِن اجْنَحُوا إِلَى الفِعْلِ وَاخْرُجُوا مِن إِسَارِ قُيُودِ الكَلاَمِ، وَتَمَرَّدُوا عَلَى عِتَاقِ القَرَارَاتِ الَّتِي تَيبَسُ مَعَ جَفَافِ حِبْرِهَا.

إِذَنْ؛ نَحْنُ لَمْ نَلْجَأ إِلَى المِكْيَافِيلِّيَّةِ وَالنِّيتْشَوِيَّةِ إِلاَّ لِاحْتِيَاجِنَا المُلْحِفِ إِلَيهِمَا، وَمِنْ هَذَا البَابِ نَفْهَمُ حِوَارَ الحَضَارَاتِ وَتَلاقُحَ العُقُولِ وَالأَفْكَارِ؛ إِنَّنَا نَعِيشُ ظُرُوفَاً لا يَجِدُ العَدُوُّ فِيهَا مَا يَحْسُدُنَا عَلَيهِ، وَيَعْجَزُ الصَّدِيقُ عَنْ

وِجْدَانِ مَا يَغْبِطُنَا عَلَيهِ. وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي أَلاَّ نَسْتَورِدَ إِلاَّ مَا نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَيهِ، وَالحُدُودُ القُصْوَى الَّتِي نَقْبَلُ بِهَا فِي هَذَا الإِطَارِ هِيَ وُجُوبُ تَسْخِيرِ إِمْكَانَاتِ كُلِّ مَا نَسْتَورِدُهُ وَاسْتِنْزَافِهَا لِخِدْمَةِ مَصَالِحِنَا وَأَغرَاضِنَا، وَإِلاَّ فَإِنَّ سَعْيَنَا سَيَكُونُ إِلَى سَرَابٍ، وَإِنْ جَنَينَا فَلَيسَ إِلاَّ اليَبَاب.

فَمَا الَّذِي نُرِيدُهُ مِنْ مِكْيَافِيلِّي وَنِيتْشِه؟

«**القِدِّيسُ الحَقِيقِيُّ فِي السِّيَاسَةِ هُوَ الَّذِي يَضْرِبُ الشَّعْبَ وَيَقْتُلُهُ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَةِ الشَّعْبِ**»[1]!! هَذِهِ العِبَارَةُ الهَازِئَةُ بِاسْتِبْدَادِيَّةِ السُّلْطَةِ الَّتِي سَطَّرَهَا **بُودْلِير** . Baudelire فِي يَومِيَّاتِهِ؛ يَومَ الثُّلاثَاءِ ١٣ أَيَّار/مَايُو ١٨٥٦م كَانَتْ تَعْنِي عِنْدَ **مِكْيَافِيلِّي** . Machiavelli شَيئَاً آخَرَ تَمَامَاً، ذَلِكَ أَنَّ لِجُمْهُورِيَّتِهِ «مُتَطَلَّبَاتٍ استِبْدَادِيَّةٍ تَسَلُّطِيَّةٍ بِقَدْرِ مَا لِحُكْمِ الأَمِيرِ الاسْتِبْدَادِيِّ؛ تُمَارِسُ الدَّولَةُ، أَو الجُمْهُورِيَّةُ، أَو الإِمْبَرَاطُورِيَّةُ، إِكْرَاهَهَا أَو قَسْرَهَا عَلَى الفَرْدِ مُتَجَاوِزَةً الخَيرَ وَالشَّرَّ، وَقَدْ تَصِلُ إِلَى الجَرِيمَة»[2].

وَالفَرْقُ الجَلِيُّ الذِي يَنْتَأُ أَمَامَ أَعْيُنِنَا هُوَ افْتِرَاقُ الوَضْعِيَّتَينِ التَّارِيخِيَّتَينِ والفِكْرِيَّتَينِ لِكِلاَ المُفَكِّرَينِ؛ فَ **بُودلِير** . Baudelire ؛ إِلَى جَانِبِ جُحُودِهِ أَيَّ انْتِمَاءٍ، كَانَ يُعَانِي اسْتِبْدَادِيَّةَ السُّلْطَةِ وَاسْتِغْلاَلَهَا المُفَاهِيمَ المُقَدَّسَةَ . وَهِيَ عِنْدَهُ خِدَعٌ . لِتَسْوِيغِ قَمْعِيَّتِهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ: «كَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ طُوبَاوِيٌّ . Utopianism صَفِيقٌ أَكَّدَ أَنَّ المُتْعَةَ العُظْمَى فِي الحُبِّ هِيَ تَكْوِينُ مُوَاطِنِينَ

---

[1] . بودلير: **يوميَّات بودلير؛ طلقات** . ترجمة: هدى حسين . ضمن مجلة: القاهرة . العدد ١٦٢ . ص ١٣٠.

[2] . جان توشار: **تاريخ الأَفكار السِّياسيَّة** . ترجمة د. ناجي الدَّراوشة . وزارة الثَّقافة . دمشق . ١٩٨٤م . ج١ . ص٣٧٠.

لِلْوَطَنِ»[٣]. أَمَّا **مِكْيَافِيلِّي** Machiavelli. فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ مَفْهُومَ المِوَاطِنِيَّةِ حَتَّى وَإِنْ تَجَنَّى عَلَيهِ هِدْرٌ مِثْلُ **بُودْلِير** وَنَعَتَهُ بِالصَّفَاقَةِ. وَلَكِنَّ العَسْفَ الَّذِي لاَقَاهُ **مِكْيَافِيلِّي** كَانَ مِنْ نَوعٍ آخَرٍ، فَقَدْ حُمِّلَ وِزْرَ مُطْلَقِيَّةِ الغَايَةِ تُبرِّرُ الوَسِيلَةَ. وَأَخْطَأَ المُعْتَسِفُونَ فِي قِرَاءَتِهِ ثَانِيَةً عِنْدَمَا اعْتَقَدُوا أَنَّ سُلُوكَ السُّبُلِ المِاكِرَةِ وَالخَادِعَةِ وَالمُلْتَوِيَةِ مُبَرَّرٌ لأَنَّ الغَايَةَ هِيَ الاحْتِفَاظُ بِالسُّلطَانِ وَالنُّفُوذِ.

وَالحَقُّ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مَحْضُ تَجَاوُزَاتٍ وَاجْتِزَاءَاتٍ مُشَوِّهةٍ، **لأَنَّ مُفَكِّرِنَا هَذَا أَنَاطَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِأَمِيرِهِ وَحَسْب؛ أَمِيرِهِ الَّذِي سَيَرْوِي تَعَطُّشَهُ لإِنْقَاذِ مَعْشُوقَتِهِ إِيطَالْيَا مِنَ التَّجْزِئَةِ الَّتِي تُكَرِّسُ ضَعْفَهَا**، وَمِنْ بَرَاثِنِ الاعْتِدَاءَاتِ الفَرَنْسِيَّةِ وَالأَلمَانِيَّةِ وَالإِسْبَانِيَّةِ، وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ غَيرَ مَرَّةٍ، فَهُوَ يَقُولُ: «**إِذَا كَانَتْ حَيَاةُ الوَطَنِ فِي خَطَرٍ يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَلاَّ يَتَقَيَّدَ فِي عَمَلِهِ بِقَوَاعِدِ العَدْلِ وَالظُّلْمِ، أَو بِقَوَاعِدِ الرَّحْمَةِ أوِ القَسْوَةِ، أَو بِقَوَاعِدِ الشَّرَفِ أَو عَدَمِهِ، بَلْ يَتَقَيَّدُ بِمَا يَرَى فِيهِ نَجَاةً لِحَيَاةِ وَطَنِهِ وَاسْتِقْلاَلِهِ**»[٤]. وَهَذَا يَعْنِي مِنْ دُونِ أَدْنَى جَدَلٍ أَو مُنَاقَشَةٍ أَنَّ كُلَّ المِوَارَبَاتِ فِي التَّعَامُلِ مُرْتَبِطَةٌ بِمَا يَخُصُّ عِزَّةَ الوَطَنِ وَمَنَعَتَهُ وَكَرَامَتَهُ وَحَسْبُ. وَلاَ يُمْكِنُ تَسْوِيغُهَا فِيمَا عَدَا ذَلِكَ.

وَالأَمْرُ عَينُهُ يُقَالُ فِي شَأنِ الأَمِيرِ: الكِتَابِ وَالشَّخْصِ. لَقَدْ وَضَعَ **مِكْيَافِيلِّي** Machiavelli كِتَابَهُ لِشَخْصٍ وَاحِدٍ بِعَينِهِ هُوَ **لُورَانْت** Laurant. مِنْ آلِ مِيدِيتْشِي Médicis «مُتَعلِّلاً بِالأَمَلِ فِي أَنْ يَحْفِزَ هَذَا الأَمِيرَ الشَّابَ

---

[٣]. بودلير: **يوميات بودلير؛ طلقات**. ص١٢٨.

[٤]. حسن خليفة: **تاريخ النَّظريَّات السياسية وتطورها**. مصر. ١٩٣٥م. ص٩٤،

عَلَى أَنْ يَتَّخِذَ بِجُرْأَةٍ المُبَادَرَةَ لإِنْهَاضِ إِيطَالِيَا»[٥] وَتَوحِيدِهَا، مِنْ دُونِ نِسْيَانِ تأكِيدِ أَهَمِّيَّةِ الميثَاقِ الدُّسْتُورِيِّ، وَالإِصْرَارِ عَلَى أَنَّ **النِّظَامَ الأَمْثَلَ هُوَ الَّذِي** « **يَحْكُمُ فِيهِ الدَّولَةَ الأَمِيرُ وَالعُظَمَاءُ وَالشَّعْبُ مَعَاً**»[٦]. وَلِذَلِكَ لاَ يَجُوزُ وَشْمُهُ بِمِيسَمِ الانْتِهَازِيَّةِ وَالوُصُولِيَّةِ أَبَدَاً، لأَنَّ الصَّلاَحِيَّاتِ الَّتِي خَلَعَهَا عَلَى الأَمِيرِ لَمْ تَكُنْ مِنْحَةَ تَفَضُّلٍ وَلاَ صَفْقَةً شَخْصِيَّةً، وَإِنَّمَا مِنْ أَجْلِ الغَايَةِ النَّبِيلَةِ؛ النَّبِيلَةِ إِلَى أَبْعَدِ الحُدُودِ، الَّتِي بِتَحَقُّقِهَا يَسْتَطِيعُ الإِنْسَانُ أَنْ يَسْتَنْشِقَ هَوَاءَ العِزَّةِ وَالكَرَامَةِ بِابْتِسَامَةِ الرِّضَا وَالارْتِيَاحِ لاَ بِنَفْثَةِ المُلْتَهِبِ المَكْرُوبِ.

لَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَقْلِبَ المَوَازِينَ، أَنْ يُغَيِّرَ الوَقَائِعَ؛ نَظَرَ إِلَى مَعْشُوقَتِهِ إِيطَالِيَا فَوَجَدَهَا شِلْوَاً مُمَزَّقَاً، تَتَنَاهَشُهُ الضِّبَاعُ، فَرَسَمَ مَعَالِمَ مِنْهَاجٍ لِجَعْلِ إِيطَالِيَا ذَاتَ مَنَعَةٍ وَقُوَّةٍ تُخَوِّلُهَا مُمَارَسَةَ الدَّور الَّذِي يُمَارَسُ عَلَيهَا، فَأَجَازَ لِلأَمِيرِ الانْقِضَاضَ عَلَى أَرَاضِي الدُّوَلِ الأُخْرَى كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُ الفُرْصَةُ، سَمَحَ لَهُ بِكُلِّ شَيءٍ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ الجَمِيعِ، فِي سَبِيلِ إِيطَالِيَا. وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ بِذَلِكَ يَسْتَحِقُّ لَقَبَ أَفْضَلِ المُرَبِّينَ إِذَا طبَّقْنَا تَعْرِيفَ **إِرْنِسْت لاَفِيس**. E. Lavisse لَهُ فِي كِتَابِهِ (التَّرْبِيَةُ وَالتَّعْلِيمُ) إِذْ قَالَ: «**إِنَّ أَفْضَلَ المُرَبِّينَ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ رُوحَ عَصْرِهِ خَيرَ مَعْرِفَةٍ، وَالَّذِي يُدْرِكُ بِإِرْهَافٍ السِّمَاتِ الكُبْرَى الَّتِي تُمَيِّزُ الحَيَاةَ المُعَاصِرَةَ**»[٧].

---

[٥] . جان توشار: **تاريخ الأَفكار السِّياسية**. ٣٦٥.

[٦] . جان توشار: **تاريخ الأَفكار السِّياسية**. ٣٦٨.

[٧] . د. عادل العوَّا: **مقدِّمات الفلسفة**. جامعة دمشق. ١٩٨٦م. ص ٢٦.

وَلَكِنْ، نَظَرَاً لِوَشِيجِ صِلَةِ التَّرْبِيَةِ بِالسُّلْطَةِ خُصُوصَاً وَبِالسِّيَاسَةِ عُمُومَاً، وَخُرُوجَاً مِنْ رِبْقَةِ التَّنْدِيدِ بِالانْسِيَاقِ وَالتَّمْهِيدِ لاتِّخَاذِ هَذِهِ الغَايَةِ مُطْيَةً أَو وَسِيلَةً يُتَذَرَّعُ بِهَا عَلَى نَحوِ مَا صَوَّرَهُ **بُودْلِير** . Baudelire فِي القِدِّيسِ السِّيَاسِيِّ «الَّذِي يَقْتُلُ الشَّعْبَ مِنْ أَجْلِ الشَّعْبِ»[٨] كَانَ لاَ بُدَّ مِنْ تَثْنِيَةِ المِكْيَافِيلِّيَّةِ بِالنِّيْتْشَوِيَّةِ. وَإِنْ كُنَّا نُعْلِنُ سَلَفَاً أَنَّ مَأسَاةَ مِزَاجِيَّةِ الفَهْمِ لَنْ تُفَارِقَ مُشْكِلَتَنَا.

ثَمَّةَ هُوَّةٌ لاَ يُمْكِنُ رَدْمُهَا لِتَقْصِيرِ المسَافَةِ بَينَ **مِكْيَافِيلِّي** . Machiavelli وَ**نِيتْشه** . Nietzche مِنْ حَيثُ المَنَابِعُ وَالغَايَاتُ وَأَرْضِيَّاتِ بِنَاءِ الأَفْكَارِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَيسَ يَعْنِينَا فِي شَيءٍ هُنَا لأَنَّ مُبْتَغَانَا مُلْتَفٌّ حَولَ مِحْوَرَي مَقْصِدَيهِمَا فِيمَا يُمْكِنُ الإِفَادَةُ مِنْهُ فِي وَاقِعِنَا وَغَايَتِنَا، فَمَا الَّذِي يُرِيدُهُ المفَكِّرُ الأَلْمَانِيُّ بَعْدَمَا عَرَفْنَا مُرَادَ السِّيَاسِيِّ الإِيطَالِيِّ ؟

أَفَادَ **نِيتْشِه** مِنْ صَدِيقِهِ المُوسِيقِيِّ الشَّهِيرِ **رِيتْشَارَدْ فَاجْنَر** . R. Vagnar بِفِكْرَةٍ مِنْ أَهَمِّ فِكَرِهِ وَجَدَهَا فِي كُتَيِّبٍ **مَخْطُوطٍ** عِنْوَانُهُ: **الدَّولَةُ وَالدِّينُ**، يَقُولُ فِيهِ «إِنَّهُ كَانَ اشْتِرَاكِيًّا لاَ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُرِيدُ المسَاوَاةَ بَينَ النَّاسِ جَمِيعَاً، بَلْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَرَاهُمْ مُحَرَّرِينَ مِنَ الأَعْمَالِ الدَّنِيئَةِ، يَرْتَفِعُونَ إِلَىْ فَهْمِ الفَنِّ. وَلَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّهُ أَخْطَأَ وَأَنَّ العَامَّةَ لاَ تَرْتَفِعُ إِلَى المسْتَوَى الَّذِي كَانَ يَنْشُدُهُ، وَأَنَّ المسْأَلَةَ الَّتِي يَتَعَيَّنُ حَلَّهَا هِيَ هَذِهِ:

كَيفَ نَقُودُ العَامَّةَ إِلَى أَنْ يَخْدِمُوا ثَقَافَةً مَقْضِيًّا عَلَيهِمْ أَنْ يَجْهَلُوهَا، وَإِلَى أَنْ يَخْدِمُوهَا بِإِخْلاَصٍ وَنَشَاطٍ حَتَّى التَّضْحِيَةِ بِالْحَيَاةِ؟

[٨] . بودلير: **يوميَّات بودلير؛ طلقات** . ص ١٣٠.

إِنَّ المِوجُودَاتِ جَمِيعَهَا تَخْدِمُ غَايَاتِ الطَّبِيعَةِ: فَكَيفَ تَحْصُلُ مِنْهُم الطَّبِيعَةُ عَلَى الاسْتِمْسَاكِ بِالحَيَاةِ وَخِدْمَةِ غَايَاتِهَا؟ إِنَّهَا تَحْصُلُ مِنْهُم عَلَى هَذَا الغَرَضِ بِخِدَاعِهِم، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَضَعُ فِيهِم الأَمَلَ فِي سَعَادَةٍ دَائِمَةٍ تُرْجَأُ دَائِمَاً، وَتَضَعُ فِيهِم غَرَائِزَ تُضطرُّ أَدْنَى البَهَائِمِ إِلَى أَعْمَالٍ شَاقَّةٍ وَتَضْحِيَاتٍ طَوِيلَةٍ، كَذَلِكَ يَجِبُ تَعَهُّدُ المِجْتَمَعِ بِخَدَعٍ تَسْتَبْقِي كَيَانَهُ»[٩].

إِنَّ المِحْوَرَ الرَّئِيسَ لِفَلْسَفَةِ **نِيتْشِه** Nietzche. مُكَثَّفٌ فِي تَسَاؤُلِ **فَاجْنَر** R. Vagnar: **كَيفَ نَقُودُ العَامَّةَ إِلَى أَنْ يَخْدِمُوا ثَقَافَةً مَقْضِيًّا عَلَيهِم أَنْ يَجْهَلُوهَا، وَإِلَى أَنْ يَخْدِمُوهَا بِإِخْلاَصٍ وَنَشَاطٍ حَتَّى التَّضْحِيَةِ بِالحَيَاةِ؟**

نَعَمْ، مِنْ هَذِهِ النُّقْطَةِ انْطَلَقَ **نِيتْشِه** لِإِشَادَةِ صَرْحِ **الإِنْسَانِ الخَارِقِ أَوِ الأَعْلَى** The Superman. بَلْ لِنَقْلِ هَذَا الإِمْكَان إِلَى وَاقِعٍ، لِتَرْبِيَةِ إِنْسَانٍ كَامِلٍ شَامِلٍ خَالٍ مِنَ المَثَالِبِ وَالمَعَايِبِ، عَلَى الطَّرِيقَةِ النِّيتْشَوِيَّةِ فِي فَهْمِ القُوَّةِ وَالخَيرِ وَالشَّرِّ .... وَلَكِنَّ صَاحِبَ **زَرَادِشْت** Zarathustra. لَمْ يُرِدْ أَنْ يُرَبِّي الإِنْسَانَ الخَارِقَ بِشَكْلٍ إِفْرَادِيٍّ أَوِ انْتِقَائِيٍّ وَحَسْبُ، لَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مُجْتَمَعُهُ كُلُّهُ مِنَ الطِّرَازِ ذَاتِهِ، وَلَمْ يُفْسِحِ المِجَالَ وَلاَ المَكَانَ لِلضُّعَفَاءِ أَبَدَاً، فَحَرَمَ بِذَلِكَ المَرْضَى وَالمُعْقِوقِينَ وَالمشَوَّهِينَ وَأَضْرَابَهُم حَقَّ الحَيَاةِ وَمُطْلَقَ الوُجُودِ، وَلِذَلِكَ طَلَبَ مِنْ «أَهْلِ السِّيَادَةِ فِي الإِنْسَانِيَّةِ المتَفَوِّقَةِ أَنْ يُمَهِّدُوا سُبُلَ السَّعَادَةِ لِمَنْ هُمْ دُونَهُم بِالتَّضْحِيَةِ بِمَلَذَّاتِهِم وَرَاحَاتِهِم،

[٩] . يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة الحديثة** . دار القلم . بيروت . د.ت . ص٤٠٧.

وَعَلَيهِم أَنْ يُنْقِذُوا مَنْ لاَ يَصْلُحُونَ لِلحَيَاةِ بِالقَضَاءِ عَلَيهِم دُونَ إِمْهَالٍ»[١٠].

لاَ نُرِيدُ أَنْ نُنَاقِشَ مَسْأَلَةَ الإِشْفَاقِ عَلَى الضُّعَفَاءِ بِقَتْلِهِم، لأَنَّنَا لَنْ نَقْبَلَ هَذِهِ الفِكْرَةَ عَلَى عَوَاهِنِهَا أَوَّلاً، وَثَانِيَاً لأَنَّ **نِيتْشِه** نَفْسَهُ مُتَنَاقِضٌ مَعَ ذَاتِهِ فِي هَذِهِ الفِكْرَةِ، الَّتِي لَو طُبِّقَتْ قَبْلَ وِلاَدَتِهِ لَوَجَدَتْ أَوَّلَ تَطْبِيقٍ لَهَا عَلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَعَلَيهِ أَيضَاً كَعَلِيلٍ وَمُقْعَدٍ طِيلَةَ الفَتْرَةِ الَّتِي أَنْتَجَ فِيهَا فِكَرَهُ الجَامِحَ الطَّامِحَ هَذَا. وَالتَّنَاقُضُ وَاضِحٌ فِي الوَصِيَّةِ السَّابِقَةِ ذَاتِهَا، وَمَعَ قَولِهِ: « إِنَّ العَالِمَ الَّذِي يَتَفَوَّقُ عَلَى إِنْسَانِيَّتِهِ إِنَّمَا يَعُودُ بَعْدَ هَذَا الجُنُوحِ إِلَى بَذْلِ حُبِّهِ لِلأَصَاغِرِ وَالمسْتَضْعَفِينَ»[١١]. إِلَى جَانِبِ تَنَاقُضِهِ مَعَ أَقْوَالٍ أُخْرَى غَيرِ قَلِيلَةٍ.

وَلَكِنَّ الَّذِي يَنْبَغِي أَلاَّ يَغْرُبَ عَنْ أَذْهَانِنَا أَنَّ الإِنْسَانَ الخَارِقَ الَّذِي أَرَادَ **نِيتْشِه** Nietzche تَرْبِيَتَهُ قَوِيٌّ دَائِمَاً، طَمُوحٌ وَثَّابٌ مَدَّ المدَى، لاَ يَنِي عَنِ الارْتِقَاءِ، «يَسْتَفِيدُ مِنْ مُكْتَشَفَاتِ العِلْمِ لِلسِّيَادَةِ عَلَى الطَّبِيعَةِ نَفْسِهَا. غَيرَ أَنَّهُ يَجْبُ أَنْ يَتَوَقَّعَ آلاَمَاً شَدِيدَةً فِي صِرَاعِهِ المسْتَمِرِّ مَعَ الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ يَسْتَخْدِمُهُم، فَقَدْ يَسْتَطِيعُونَ أَحْيَانَاً بِفَضْلِ عَدَدِهِم أَو دَهَائِهِم أَنْ يَقْهَرُوهُ، وَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ شِعَارُهُ: **الحَيَاة الخَطِرَة**، وَلمِا كَانَتْ غَايَتُهُ الفَوزَ فَإِنَّهُ يَأبَى كُلَّ شَفَقَةٍ عَلَى المسَاكِينِ»[١٢]. انْطِلاَقَاً مِنْ إِرَادَةِ الحَيَاةِ عِنْدَ **شُوبِنْهَوَر**.

---

[١٠] . نيتشه: **هكذا تكلَّم زرادشت** . ترجمة: فليكس فارس . دار الينابيع . دمشق/بيروت . د.ت . ص٨.

[١١] . نيتشه: **هكذا تكلَّم زرادشت** . ص٨.

[١٢] . يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة الحديثة** . ص ٤١٠-٤١١.

Schopenhauer الَّتِي يُعَلِّقُ عَلَيهَا **نِيتْشِه** قَائِلاً: «إِنَّ الحَيَاةَ تَتُوقُ دَائِمَاً إِلَى الازْدِهَارِ وَالانْتِشَارِ وَلَو بِالطُّغْيَانِ عَلَى الغَيرِ، وَبَسْطِ سُلْطَانِهَا عَلَيهِ، وَإِنَّهَا مِنْ ثَمَّةَ مَبْدَأُ حَمَاسَةٍ وَفَتْحٍ؛ فَإِرَادَةُ القُوَّةِ هِيَ الاسْمُ الحَقِيقِيُّ لإِرَادَةِ الحَيَاةِ، وَكُلُّ إِرَادَةٍ قُوَّةٌ فَهِيَ تَذْهَبُ إِلَى حَدِّهَا الأَقْصَى لأَنَّ الحَيَاةَ لاَ تَزْدَهِرُ إِلاَّ بِإِخْضَاعِ مَا حَولَهَا»[١٣].

وَعَلَى هَذَا الأَسَاسِ يَضَعُ **نِيتْشِه** فِي فَمِ **زَرَادِشْت** Zarathustra قَولَهُ: «**لاَ نُرِيدُ أَنْ يُرَاعِينَا خِيرَةُ أَعْدَائِنَا، كَمَا لاَ نُرِيدُ أَيضَاً أَنْ يُرَاعِينَا مَنْ نُحِبُّهُم مِنْ صَمِيمِ الفُؤَادِ**»[١٤] لأَنَّ شِعَارَ الإِنْسَانِ الأَعْلَى أَوِ الخَارِقِ هُوَ «**الحَيَاةُ الخَطِرَةُ**»[١٥]، وَالحَرْبُ الدَّائِمَةُ مَعَ الجَمِيعِ.

«إِنَّ مَنْ يَطْمَحُ إِلَى مِثْلِ مَا طَمَحَ إِلَيهِ **نِيتْشِه** مِنْ تَكْوِينِ مُجْتَمَعٍ مُنَظَّمٍ يَسُودُ فِيهِ المتَفَوِّقُونَ، وَلِكُلٍّ مِنْهُم شَرُّهُ الخَاصُّ وَخَيرُهُ الخَاصُّ لاَ يُوجِدُ فِي النِّهَايَةِ إِلاَّ مُجْتَمَعَاً يَتَفَاوَتُ فِيهِ التَّفَوُّقُ بَينَ أَفْرَادِهِ فَيَقْضِي الأَقْوَى مِنْهُم عَلَى الأَقلِّ قُوَّةً مِنْهُ حَتَّى يَقِفَ آخِرُ الظَّافِرِينَ مُنْتَحِرَاً بِقُوَّتِهِ وَعُنْفِهِ كَمَا انْتَحَرَ إِلَهُ **نِيتْشِه** بِرَحْمَتِهِ!!

غَيرَ أَنَّ مُبْدِعَ **زَرَادِشْت** Zarathustra لَمْ تَفُتْهُ هَذِهِ الحَقِيقَةُ، فَعَادَ إِلَى الشَّرِيعَةِ الأُولَى يَخْتَلِسُ مِنْهَا آيَتَهَا الكُبْرَىْ لِيُورِدَهَا وَصِيَّةً لِدُنْيَاهُ، فَقَالَ: **حَذَارِ مِنَ الطَّفْرَةِ فِي مَسْلَكِ الفَضِيلَةِ، فَعَلَى كُلِّ فَرْدٍ أَنْ يَسِيرَ فِي**

---

[١٣] . يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة الحديثة**. ص ٤١٠.

[١٤] . نيتشه: **هكذا تكلَّم زرادشت**. ص ٧١.

[١٥] . يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة الحديثة**. ص ٤١١.

طَرِيقِهِ، وَإِنْ جَنَحَ عَنْ مَسَالِكِ الآخَرِينَ، فَلاَ يَطْمَحَنَّ إِلَى بُلُوغِ الذُّرْوَةِ وَحْدَهُ، إِذْ عَلَى كُلِّ سَائِرٍ أَنْ يَكُونَ جِسْرَاً لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَقُدْوَةً لِلْمُتَأَخِّرِينَ»[١٦].

وَهُنَا يُمْكِنُ القَولُ بِمَعْنَى لَفْظِ **نِيتْشِه** لاَ بِالقَلْبِ الَّذِي أَرَادَهُ وَخَتَمَ بِهِ أَقْوَالَ **زَرَادِشْت** Zarathustra : «إِنَّ اللَّذَّةَ السَّعِيدَةَ الثَّائِرَةَ تَشْتَاقُكُمْ أَيُّهَا الرَّاقُونَ، وَتَحِنُّ إِلَى آلاَمِكُمْ أَيُّهَا الفَاشِلُونَ»[١٧].

بَعْدَ هَذَا التَّمْهِيدِ المطَوَّلِ لِلضَّرُورَةِ يُمْكِنُنَا الْوُلُوجُ إِلَىْ صُلْبِ مُبْتَغَانَا، وَمِنْ دُونِ مُقَدِّمَاتٍ إِضَافِيَّةٍ، أَو مُنَاوَرَاتٍ خَفِيَّةٍ نَعْرِضُ مَا نُرِيدُ:

إِنَّ إِنْسَانَنَا العَرَبِيَّ الرَّاهِنَ، إِذَا اسْتَعَرْنَا تَعْبِيرَ **نِيتْشِه** Nietzche لِتَمْثِيلِهِ، عَلَىْ حِدَّتِهِ: «**حَبْلٌ مَشْدُودٌ بَينَ الحَيوَانِ الأَعْجَمِ وَالإِنْسَانِ الأَعْلَى؛ حَبْلٌ مَشْدُودٌ فَوقَ الهَاوِيَةِ**»[١٨]، **بَلْ صَلِيبٌ بِمَسَامِيرِ الذَّهَبِ عَلَى عِيدَانِ القَصَبِ.**

إِذَا اسْتَثْنَينَا العُظَمَاءَ الآنَ مِنْ جُذُورٍ عَرَبِيَّةٍ وَتَجَاهَلْنَاهُمُ لِبُعْدِ عَهْدِهِم بِالعَرَبِ، وَاقْتَصَرْنَا عَلَى المهَاجِرِينَ وَالمغْتَرِبِينَ الجُدُدِ لَوَجَدْنَا بَينَهُم عَشَرَاتٍ بَلْ مِئَاتٍ بَلْ آلافاً مِنَ المبدِعِينَ وَالمخترِعِينَ وَالعَبَاقِرَةِ الذِينَ يَبُزُّونَ نُظَرَاءَهُم

---

[١٦] . نيتشه: **هكذا تكلَّم زرادشت** . ص ٧ . ٨.

[١٧] . نيتشه: **هكذا تكلَّم زرادشت** . ص ٣٤٧.

[١٨] . يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة الحديثة** . ص ٤١٠.

الغَربِيِّينَ عَمْلَقَةً، بِمَا يَقطَعُ دَابِرَ أَيَّ شَكٍّ فِي أَنَّ العَرَبَ غَيرَ عَاجِزِينَ الآنَ عَنْ النُّهُوضِ الوَثَّابِ.

لَقَدْ نَزَحَتْ هَذِهِ العُقُولُ الخَلاَّقَةُ لأَنَّ وَطَنَنَا عَلَى هَولِ إِمْكَانَاتِهِ وَمُعْجِزِ مُقَدَّرَاتِهِ عَاجِزٌ عَنْ اسْتِيعَابِهَا وَاحْتِوَائِهَا؛ عَجْزَ المُرِيدِ الفَرِحِ بِعَجْزِهِ لا عَجْزَ الفَارِغِ اليَائِسِ مِنْ امْتِلاَئِهِ.

إِنَّ الاسْتِنْتَاجَ الَّذِي يُوقِفُ شَعْرَ الرَّأسِ إِنْ أَبَقَاهُ مَكَانَهُ، مِنْ هَذِهِ الحَقِيقَةِ المُرْعِبَةِ، هُوَ أَنَّ هَذِهِ الطَّاقَاتِ الَّتِي لاَ تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ أَبَدَاً، وَلاَ نَدْرِي إِنْ كُنَّا سَنُؤْتَىٰ مِثْلَهَا، قَدْ ضَاعَتْ عَلَى العَرَبِ، وَهُدِرَتْ كَمَا « هُدِرَتْ تِرِيلْيُونَاتِ الدُّولاَرَاتِ العَرَبِيَّةِ؛ المِبْلَغُ الأُسْطُورِيُّ الَّذِي لَمْ يَتَحَقَّقْ لأَيِّ إِمْبَرَاطُورِيَّةٍ فِي العَالَمِ، مِنْ دُونِ أَدْنَىٰ فَائِدَةٍ يُوَافِقُ التَّارِيخُ عَلَى ذِكْرِهَا بَينَ أَسْطُرِهِ»[١٩].

وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ تَمَامَاً، وَبِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ عَصْرِ الظُّلُمَاتِ، نَجِدُ أَنَّ دَفَاتِرَ مُذَكَّرَاتِ العَرَبِ مُنْذُ النَّهْضَةِ وَحَتَّى الآنَ، مُنْتَبِجَةٌ بِمَا يَنْدَى لَهُ الجَبِينُ: خُضْنَا مِئَةَ حَرْبٍ وَخَسِرْنَاهَا جَمِيعَهَا. وَبَنَينَا مَصْنَعَينِ مُهِمَّينِ فَقَطْ وَدُمِّرَا قَبْلَ أَنْ يَعْمَلاَ. وَانْقَسَمْنَا إِلَى أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ دَولَةً تَفْصِلُ بَينَهَا حُقُولُ الأَلغَامِ، فِي الوَقْتِ الَّذِي لاَ يَفْصِلُ الأُمَمَ عَنْ بَعْضِهَا سِيَاجُ شَوكٍ أَو وَرْدٍ، وَتَمَسَّكْنَا بِذَلِكَ وَفَخِرْنَا بِهِ وَكَرَّسْنَاهُ. وَلَولاَ أَلْطَافُ اللهِ لَمَا بَقِيَتْ دَولَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ غَيرَ مُتَحَارِبَتَينِ بِأَعْتَى الأَسْلِحَةِ. وَتَكَادُ لاَ تُوجَدُ دَولَةٌ غَيرُ مَسْلُوخَةِ الجَوَانِبِ.

[١٩] . عزت السيد أحمد: **النِّظام الاقتصادي العالمي الجديد**. مكتبة دار الفتح. دمشق. ١٩٩٣م. ص ٩٥.

وَنَشْتَرِي السِّلاَحَ مِنْ عَدُوِّنَا لِنُحَارِبَهُ بِهِ. وَلَمْ يَتَّفِقْ أَنْ أَجْمَعْنَا عَلَى أَمْرٍ حَتَّى اللَّحْظَةِ الَّتِي نَعِيشُهَا. وَلَمْ نُنَفِّذْ قَرَاراً اتَّخَذْنَاهُ بِأَغْلَبِيَّةٍ. وَإِنْ بُدِءَ بِتَنْفِيذِ قَرَارٍ اخْتُرِقَ فِي اليَومِ التَّالِي !!!... وَهَذَا كُلُّهُ غَيضٌ مِنْ فَيضٍ.

أَفَلَسْنَا إِذَنْ بِأَمَسِّ الحَاجَةِ إِلَى المِكْيَافِيلِّيَّةِ وَالنِّيتْشَوِيَّةِ وَالستَالِينِيَّةِ وَالهِتْلَرِيَّةِ لِنَنْسُفَ عُقُولَنَا وَنُعِيدَ بَنَاءَهَا مِنْ جَدِيدٍ؟! بِاسْتِعَارَةِ تَعْبِيرِ **نِيتْشِه** . Nietzche يُمْكِنُنَا الْقَولُ: إِنَّ إِنْسَانَنَا الْعَرَبِيَّ الرَّاهِنَ قَدِ «اعْتَقَلَ الْحَيَاةَ، وَالإِنْسَانُ الأَعْلَى . The Superman هُوَ الْمُؤَهَّلُ لإِنْقَاذِهَا وَالإِفْرَاجِ عَنْهَا فِي الإِنْسَانِ ذَاتِهِ»[٢٠].

إِنَّ الفُرْصَةَ المتَاحَةَ أَمَامَنَا الآنَ؛ عَلَى ضَبَابِيَّتِهَا وَصُعُوبَتِهَا وَخُطُورَتِهَا، قَدْ لاَ تَتَكَرَّرُ لِدَورَةٍ حَضَارِيَّةٍ جَدِيدَةٍ كَامِلَةٍ. وَسَنَكُونُ أَكْثَرَ مِنْ مُجْرِمِينَ، بَلْ « **الأُمَّةَ الوَحِيدَةَ فِي التَّارِيخِ الَّتِي تَتَهَاوَنُ فِي ذَلِكَ**»[٢١] عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ **فُولبْرايت**، إِذَا لَمْ نَعْمَدْ إِلَى اسْتِغْلاَلِهَا بِالتَّخْطِيطِ الأَمِينِ الدَّقِيقِ المنَظَّمِ الوَاعِي، وَبِاسْتِنْفَادِ كُلِّ الإِمْكَانَاتِ المتَوَفِّرَةِ وَاسْتِزَافِهَا حَتَّى آخِرِ رَمَقٍ، وَتَوفِيرِ غَيرِ الموجُودِ، قَبْلَ أَنْ تَضِيعَ مِنْ بَينَ أَيدِينَا الَّتِي سَتَلْطِمُ خُدُودَنَا إِذْ ذَاكَ نَدَمَاً وَحَسْرَةً عَلَى مَا لَيسَ يَعُودُ. وَلِذَلِكَ فَإِنَّ المهَامَّ المِلْقَاةَ عَلَى عَاتِقِ التَّرْبِيَةِ؛ وَالتَّرْبِيَةِ بِالدَّرَجَةِ الأُولَى، مَهَامٌّ جَسِيمَةٌ.

---

[٢٠] . جيل دلوز: **المعرفة والسُّلطة؛ مدخل لقراءة فوكو** . ص١٤٦.

[٢١] . من كلمة أَلقاها فولبرايت في مدينة واشنطن في ١٥/٤/١٩٧٥م. وهو رئيس سابق للجنة العلاقات الخارجيَّة في مجلس الشيوخ الأَمريكي. انظر ما يخصُّ أُمتنا من هذه الكلمة في كتابنا: **النظام الاقتصادي العالمي الجديد** . ص١٠٤.

وَالتَّرْبَوِيُّونَ وَحْدَهُمْ هُمُ المسْؤُولُونَ عَنْ ذَلِكَ: التَّرْبَوِيُّونَ المفَكِّرُونَ وَالميدَانِيُّونَ وَالإِدَارِيُّونَ.

وَلَكِنْ مِنْ أَينَ نَبْدَأُ، وَأَينَ نَقِفُ، وَأَينَ يَنْبَغِي أَنْ نَصِلَ؟

أَعْتَقِدُ أَنَّهُ حَتَّى نَعْرِفَ نُقْطَةَ الانْطِلاَقِ وَسُبُلَ المسِيرِ يَجِبُ أَنْ نُحَدِّدَ مَا نُرِيدُ وَأَينَ يَنْبَغِي أَنْ نَصِلَ.

تُجْمِعُ الاتِّجَاهَاتُ الفِكْرِيَّةُ وَالعَقَائِدِيَّةُ . Ideology العَرَبِيَّةُ عَلَى أَنَّهَا تَسْعَى إِلَى تَقَدُّمِ الأُمَّةِ وَتَطَوُّرِهَا وَمُوَاكَبَتِهَا رُوحَ العَصْرِ. وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ غَايَتُنَا فَبِئْسَتِ الغَايَةُ، وَضَعُفَ الطَّالبُ وَالمطْلُوبُ. لأَنَّ دُوَلَ العَالَمِ الأَوَّلِ تَفْرِضُ عَلَينَا التَّطوُّرَ وَمُوَاكَبَةَ رُوحِ العَصْرِ عَلَى رَغْمَ أُنُوفِنَا لاَ بِإِرَادَتِنَا. **فَهِيَ لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعِيشَ إِنْ ظَلَلْنَا فِي الحَضِيضِ.**

الحَقُّ لَو أَنَّنَا أَرَدْنَا هَذِهِ الغَايَةَ عَلَى غِرَارِ مَا دَرَجَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ جُلِّ المفَكِّرِينَ وَالاتِّجَاهَاتِ الفِكْرِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ وَغَيرِهَا لِسِرْنَا فِي رِكَابِ أَيٍّ مِنْهُم وَكَفَينَا أَنْفُسَنَا شَرَّ الجِدَالِ، بَلْ وَلَمَا كَانَ عِنْوَانُ بَحْثِنَا عَلَى مَا هُوَ عَلَيهِ؛ العِنْوَانُ الَّذِي أَفْتَرِضُ أَنَّهُ، مَعَ مَا سَلَفَ شَرْحُهُ، يَشُفُّ عَنْ غَايَتِنَا إِنْ لَمْ يُفْصِحْ عَنْهَا بِوُضُوحٍ.

إِنَّنَا، فِيمَا نَطْلُبُهُ، نُشْبِهُ الشَّاعِرَ **أَبَا دُلاَمَةَ**؛ الَّذِي أَثْلَجَ صَدْرَ أَمِيرِ المؤْمِنِينَ فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَتَمَنَّى مَا يَشَاءُ مُكَافَأَةً لَهُ، فَأَدْهَشَ **أَبُو دُلاَمَةَ** الأَمِيرَ عِنْدَمَا طَلَبَ كَلْبَ صَيدٍ فَقَطْ، وَلَكِنَّ وُجُودَ كَلْبَ الصَّيدِ لاَ يُغْنِي عَنْ وُجُودِ

فَرَسٍ لِلصَّيدِ، وَالأَصْيَادُ وَالْكَلْبُ وَالْفَرَسُ بِحَاجَةٍ إِلَى خَدَمٍ يَقُومُونَ عَلَى إِعْدَادِهَا وَالعِنَايَةِ بِهَا، وَلاَ بُدَّ لِلْخَدَمُ مِنْ دَارٍ وَاسِعَةٍ تُؤْوِيهِمْ، وَالدَّارُ الوَاسِعَةُ لاَ مَعْنَى لَهَا مِنْ دُونِ مَزْرَعَةٍ لائِقَةٍ، وخُتِمَت احْتِيَاجَاتُ كَلْبِ **أَبِي دُلاَمَةَ** بِقَولِهِ:

- يَا أَمِيرَ المؤْمِنِينَ، جَعْلْتَ مَسْؤُولِيَّةَ كُلِّ ذَلِكَ فِي عُنُقِي، فَمِنْ أَينَ أُنفِقُ عَلَيهِمْ؟؟

فَأَمَرَ الأَمِيرُ بِرَاتِبٍ لَهُ وَلِلْجَمِيعِ.

وَالذِي نُرِيدُهُ نَحْنُ شَيءٌ بَسِيطٌ جِدًّا، وَهُوَ أَن نَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ مِظَلَّةِ الآخَرِ وَنَقِفَ تَحْتَ مِظَلَّتِنَا. وَلَنْ يَكُونَ لَنَا ذَلِكَ إِلاَّ إِذَا تَرَكْنَا هَامِشَ الفِعْلِ التَّارِيخِيِّ وَالحَضَارِيِّ وَأَمْسَكنَا مَتْنَهُ. وَلاَ يُمْكِنُ أَن يَتِمَّ لَنَا هَذَا إِلاَّ إِذَا كُنَّا أَسيَادَ أَنفُسِنَا. وَلاَ نَكُونُ أَسيَادَ أَنفُسِنَا إِلاَّ إِذَا كُنَّا أَقوِيَاءَ. وَلَنْ نَكُونَ أَقوِيَاءَ إِلاَّ إِذَا أَعْمَلنَا المَبَاضِعَ فِي جِرَاحِنَا. وَلَنْ نَعْرِفَ مَكَامِنَ الجِرَاحِ إِلاَّ إِذَا وَضَعْنَا أَصَابِعَنَا عَلَى ضَمَائِرِنَا وَسَمِعنَا نِدَاءَهَا. وَلَنْ نَسمَعَ نِدَاءَ ضَمَائِرِنَا إِلاَّ إِذَا وَعَينَا انْتِمَاءَنَا وَتَعَصَّبنَا لَهُ... وَلَنْ أُطِيلَ حَلَقَاتِ هَذَا المسَلْسَلِ لأَنَّهَا تَكَادُ تَكُونُ غَيرَ مُنْتَهِيَةٍ، وَهِيَ عَلَى هَذَا الطُّولِ المرِيعِ لأَنَّ الحَضَارَةَ كُلٌّ مُتَكَامِلٌ؛ عَنَاصِرُهَا كلُّها عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ تَحْقِيقَ أَيِّ إِنْجَازٍ بَارِعٍ عَلَى صَعِيدِ العَالَمِ كُلِّهِ لَيسَ دَلِيلاً عَلَى التَّقَدُّمِ وَالتَّطَوُّرِ وَالحَضَارَةِ إِذَا كَانَتْ كُلُّ أَو بَقِيَّةُ القِطَاعَاتِ الأُخْرَى أَو مُعظَمُهَا بَينَ تُخُومِ الأَنقَاضِ.

وَلأَنَّ الآخَرَ لَنْ يَسْمَحَ لَنَا بِالخُرُوجِ مِنْ تَحْتِ مِظَلَّتِهِ مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ مِنْ ثَمَنٍ. وَلأَنَّ وَاقِعَنَا بِحَدِّ ذَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَأسَاوِيٍّ، وَلاَ يُتَوَقَّعُ مِنْهُ فِي إِطَارِ رَاهِنِيَّتِهِ التَّارِيخِيَّةِ النُّهُوضَ بِهَذِهِ الأَعْبَاءَ. فَإِنَّ المهَمَّاتِ المُلْقَاةِ عَلَى عَاتِقِنَا؛ جَمِيعِنَا، وَفِي مُخْتَلِفِ المَيَادِينِ، مَهَمَّاتٌ جَسِيمَةٌ. وَإِذَا كُنَّا نُؤَكِّدُ لِلْمَرَّةِ المِلْيَارِ بَعْدَ المِلْيَارِ بَعْدَ المِلْيَارِ ضَرُورَةَ تَكَاتُفِ جُهُودِ كُلِّ الاخْتِصَاصَاتِ وَالفِئَاتِ وَالشَّرَائِحِ وَالدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ مِن أَجْلِ هَذِهِ الغَايَةِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّذْكَارِ لاَ التَّكْرَارِ. وَإِذَا كُنَّا نُعْلِنُ لِلمَرَّةِ الأُولَى بَعْدَ عَشَرَاتِ المِلْيَارَاتِ أَنَّنَا لَنْ نَتَقَدَّمَ خُطْوَةً وَاحِدةً غَيرَ مَسْمُوحٍ بِهَا مَادُمْنَا نَنْتَظِرُ فُتَاتَ الغَرْبِ لِنَقْتَاتَ بِهِ، فَإِنَّنَا نَسْتَحِي مِنْ إِعْلانِ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ لأَنَّ أَقَلَّ النَّاسِ خِبرَةً فِي الحَيَاةِ يُجَاهِرُونَ بِهَذِهِ الحَقِيقَةِ. وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَن نَعْتَمِدَ عَلَى أَنْفُسِنَا، وَنَعْرِفَ كَيفَ نَعْتَمِدُ عَلَيهَا، وَلتَعْدُو الوَاجِبَاتُ التَّقلِيدِيَّةُ لِلتَّرْبِيَةِ وَالمطَالِبُ المكْرُورَةُ بِاسْتِخْدَامِ التِّقَنيَّاتِ، وَتَكْوِينِ المَوَاطِنِ الصَّالِحِ، وَتَقْوِيمِ السُّلُوكِ، وَمَا يَدُورُ فِي فَلَكِهَا، وَاجِبَاتٍ هَامِشِيَّةً أَمَامَ الوَاجِبَاتِ الجَدِيدَةِ.

يَنبَغِي أَن تَتَّجِهَ التَّربِيَةُ الآنَ إِلَى خَلْقِ الإِنْسَانِ الأَعْلَى؛ الخَارِقِ، الذِي يُجْبِرُ وَطَنَهُ عَلَى الافتِخَارِ بِهِ لِمَا يُقَدِّمُهُ لِهَذَا الوَطَن، وَكُلُّ مَا نُقَدِّمُهُ لِلوَطَنِ، حَتَّى الرُّوحَ، مَحْضُ وَاجِبٍ مُشَرِّفٍ لايَجُوزُ أَن نَنْتَظِرَ عَلَيهِ جَزَاءً وَلا شُكُورَا، وَلَكِنَّ وَطَنَنَا لَدَيهِ مِثْلُ هَؤُلاءِ الأَفذَاذِ المفتَرَضِينَ لايَحِقُّ لَهُ أَن يَجْحَدَهُم العِرْفَانَ؛ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَطَنُنَا هُوَ الأَعلَى بِنَا، وَأَنْ نَكُونَ الأَعلَى بِوَطَنِنَا. وَمَنْ لاَ أَمَلَ فِي وُصُولِهِ إِلَى مَرْتَبَةِ الإِنْسَانِ الأَعلَى؛ الخَارِقِ، لَنْ نُنْقِذَهُ أَو

نُشْفِقَ عَلَيهِ عَلَى طَرِيقَةِ **نِيتشِه** Nietzche. وَلَكِنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَن نُلْزِمَهُ بِمُسَاعَدَتِنَا عَلَى النَّحوِ الذِي أَوضَحَهُ **مِكْيَافِيلِّي** Machiavelli. وَيَجِبُ أَن نَكُونَ كُلُّنَا مِكْيَافِيلِّيِّينَ فِي كُلِّ مَا يَخُصُّ عِزَّةَ وَطَنِنَا وَكَرَامَتَهُ وَقُوَّتَهُ. وَلَكِن حَذَارِ مِنَ العَشْوَائِيَّةِ الَّتِي ضَيَّعَتنَا، وَمِن سُوءِ التَّخْطِيطِ الذِي دَمَّرَنَا، وَمِنْ طِيبَةِ القَلْبِ السَّاذَجَةِ التِي أَوصَلَتْ أَعْنَاقَنَا إِلَى مَقَاصِلِ أَعْدَائِنَا.

وَحَتَّى نَصِلَ إِلَى مَا نَصْبُو إِلَيهِ نَجِدُنَا وَجْهَاً لِوَجْهٍ أَمَامَ المِطَالِبِ التَّقْلِيدِيَّةِ المِمْلُولِ مِن سَمَاعِهَا لِكَثْرَةِ تَكْرَارِهَا، وَتَتَمَثَّلُ وِفْقَ تَسْمِيَاتِنَا الجَدِيدَةِ، عَلَى ضَوءِ مُعطَيَاتِنَا سَالِفَةِ الذِّكرِ، فِي عِدَّةِ نِقَاطٍ أَهَمُّهَا: تَقْوِيضُ المَنَاهِجِ التَّقْلِيْدِيَّةِ؛ التَّرْبَوِيَّةِ وَالتَّعلِيمِيَّةِ، وَإِعَادَةُ تَأسِيسِهَا مِنْ جَدِيدٍ بِمَا يَتَوَافَقُ مَعَ مَطَامِحِ الأُمَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَيَرتَبِطُ بذَلِكَ وَيَتَكَامَلُ مَعَهُ عَصْفُ عُقُولِ المعَلِّمِينَ وَعُمُومِ التَّرْبَوِيِّينَ، وَيَسْبِقُ ذَلِكَ إِعَادَةُ بِنَاءِ كُلِّيَّةِ التَّربِيَةِ وَالبَيتِ التَّربَوِيِّ وَبِنَاؤهُمَا بِمَا يَتَوَافَقُ مَعَ المعطَيَاتِ الجَدِيدَةِ، وَيَتَوَاشَجُ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ شَحذُ الضَّمِيرِ التَّربَوِيِّ وَالتَّعلِيمِيِّ، وَيُتَابَعُ هَذَا بِالتَّدْرِيبِ المسْتَمِرِّ وِفقَ نَوَاظِمَ تَمْحُو الارتِجَالِيَّةَ وَاللاَّمُبَالاةَ، وَغَايَتُنَا دَائِمَاً هِيَ بِنَاءُ العَبَاقِرَةِ المبدِعِينَ الأَقْوِيَاءَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ اعْتِقَادَ اليَقِينِ بِمَا نَنْطَلِقُ مِنهُ فِي بِنَائِهِم وَهُوَ: الإِيمَانُ بِرِسَالَةِ الأُمَّةِ العَرَبِيَّةِ السَّامِيَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَفْرِضَ ذَاتَهَا بَينَ الأُمَمِ.

وَعَلى العُمُومِ يُمْكِنُنَا الحَدِيثُ عَنْ ذَلِكَ فِي النِّقَاطِ التَّالِيَةِ؛ الَّتِي هِيَ عُنْوَانَاتُ مَا سَيَأتِي مِنَ الْفِقَرِ، مَعَ اعْتِذَارِنَا الشَّدِيدِ إِذَا كَرَّرْنَا فِكْرَةً مَرَرْنَا بِهَا؛ نَحْنُ أَو غَيرُنَا، وَسَنَفْعَلُ ذَلِكَ.

* * *

أَوَّلاً

تقويض المناهج التَّقليديَّة

تُؤَدِّي المَنَاهِجُ التَّرْبَوِيَّةُ أَغْرَاضاً تَعْلِيمِيَّةً مَقْبُولَةً إِلَى حَدٍّ قَرِيبٍ أَو بَعِيدٍ مِنَ النَّاحِيَةِ النَّظَرِيَّةِ وَحَسْبُ. أَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ العَمَلِيَّةِ فَتِلْكَ مَسْأَلَةٌ يُشَكُّ فِيهَا مِنْ جِهَةٍ، وَهِيَ مَثَارُ اهْتِمَامِ فَرِيقٍ مُخْتَصٍّ، قَدْ لاَ أَكُونُ مِنْهُ، يُعْنَى بِالْكَشْفِ عَمَّا تُثْمِرُهُ العَمَلِيَّةُ التَّعْلِيمِيَّةُ مِنْ نَتَائِجَ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ. وَأَمَّا المَرْجُوُّ فَغَيرُ مَوجُودٍ.

وَلَكِنْ يَحِقُّ لَنَا أَنْ نَتَسَاءَلَ: مَا الوَظِيفَةُ التَّرْبَوِيَّةُ الَّتِي تَقُومُ بِهَا هَذِهِ المَنَاهِجُ؟

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ لاَ أَدَّعِي عِلْمَاً بِهَا لأَنِّي لَمْ أَبْحَثْهَا، وَلاَ يَحِقُّ لِي أَنْ أُلْقِيَ الآحْكَامَ فِيهَا جُزَافَاً، وَلَكِنَّهَا أَوَّلاً مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ يَنْبَغِي الوُقُوفُ عِنْدَهَا كَثِيرَاً، وَثَانِيَاً فَإِنَّ مَا نَرَاهُ مِنْ نَتَائِجَ لاَ يَسُرُ وَلاَ يُرْضِي أَبَدَاً فَنَحْنُ حَتَّى الآنَ؛ أَي بَعْدَ النَّهْضَةِ بِأَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ عَامٍ، وَبَعْدَ مِئَاتِ بَلْ آلاَفِ النَّدَوَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ وَالمؤْتَمَرَاتِ وَالاجْتِهَادَاتِ، لَمْ يَتَأَصَّلْ أَوْ يَتَرَسَّخْ لَدَينَا سُلُوكٌ حَضَارِيٌّ يَنْفَرِدُ

أَوْ يَتَكَامَلُ مَعَ مَنْظُومَةِ أَوْ بُنْيَةِ الأَخْلاَقِ الَّتِي تَتَّسِمُ بِهَا الأُمَّةُ الْمَدَنِيَّةُ أَو الْمُتَمَدِّنَةُ؛ لاَ فِي النِّظَامِ وَلاَ الانْتِظَامِ، وَلاَ فِي النَّظَافَةِ، وَلاَ فِي الصِّدْقِ، وَلاَ فِي الوَعْدِ، وِلاَ فِي قَطْعِ الطَّرِيقِ، وَلاَ حَتَّى فِي آدَابِ السُّلُوكِ الشَّخْصِيِّ الخَاصِّ!!! فَعَلَى مَنْ تَقَعُ مَسْؤُولِيَّةُ ذَلِكَ؟

وَمَعَ عَدَمِ تَجَاوُزِ قَاصِمِ الظَّهْرِ هَذَا فَإِنَّ أَسَالِيبَ عَرْضِ المحْتَوَى العِلْمِيِّ وَلُغَتَهُ وَمِنْهَجَهُ أَمْرٌ قَدْ يَقْشَعِرُّ لَهُ البَدَنُ أَحْيَانَاً، وَالأَخْطَاءُ اللُّغَوِيَّةُ بَدْءًا مِنَ المرْحَلَةِ الإِبْتِدَائِيَّةِ وُصُولاً إِلَى كُلِّ الاخْتِصَاصَاتِ فِي المرَاحِلِ اللاَّحِقَةِ، حَتَّى فِي مَنَاهِجِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ أَمْرٌ يُثِيرُ كَثِيراً مِنَ التَّسَاؤُلاَتِ، وَلاَ أَقِفُ عِنْدَ اللُّغَةِ بِدَاعِي التَّعَصُّبِ لِلُغَتِي، وِلاَ يُعَابَ تَعَصُّبُ المرْءِ لِلُغَتِهِ وَأُمَّتِهِ، بَلْ مِنْ بَابِ أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ الفِكْرُ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ أَدَاةَ الفِكرِ. وَالبِنَاءُ السَّلِيمُ يَبْدَأُ مِنْ أَسَاسٍ سَلِيمٍ.

إِنَّ الَّذِينَ يَضَعُونَ المنَاهِجَ التَّرْبَوِيَّةَ هُمْ بِمَعْنًى مِنَ المعَانِي مُوَظَّفُونَ ارْتَقُوا فِي مَرَاتِبِهِم الوَظِيفِيَّةِ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى مَوَاقِعَ تُخَوِّلُهُم تَخْلِيدَ أَسْمَائِهِم عَلَى صَفَحَاتِ الكُتُبِ المدْرَسِيَّةِ، وَكَمَا يَقُولُ الدُّكْتُورُ **صُبْحِي أَبُو جَلاَل**: «كَثِيراً مَا يُؤَدِّي عَدَمُ تَقْوِيمِ المنَاهِجِ بِالدِّقَةِ وَبِالتَّوقِيتِ المطْلُوبَيْنِ إِلَى فِقْدَانِ الثِّقَةِ بِالمنْهَجِ الجَدِيدِ، وَإِلَى تَأخِيرِ عَمَلِيَّةِ التَّطْوِيرِ كُلِّهَا، لأَنَّ المخْتَصِّينَ (تَجَاوُزَاً) لَيسَتْ لَدَيهِمُ المعْلُومَاتُ الكَافِيَةُ عَنْ مَدَى النَّجَاحِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ لاتِّخَاذِ قَرَارَاتِهِم السَّلِيمَةِ فِي ضَوءِ المعْلُومَاتِ. **فَالمنَاهِجُ فِي البُلْدَانِ**

العَرَبِيَّةِ جَامِدَةٌ، وَتَقْلِيدِيَّةٌ، وَتَفْتَقِرُ إِلَى الجَانِبِ التَّطْبِيقِيِّ فِي أَغْلَبِ مُقَرَّرَاتِهَا.

وَيَعْتَقِدُ كَثِيرُونَ أَنَّ تَطْوِيرَ المَنَاهِجِ مُجَرَّدُ تَغْيِيرٍ فِي المُقَرَّرَاتِ الدِّرَاسِيَّةِ، أَو تَعْدِيلٍ فِي سَاعَاتِ الدِّرَاسَةِ، دُونَ أَيِّ شُعُورٍ بِضَرُورَةِ النَّظْرَةِ الشَّامِلَةِ إِلَى تَكْوِينِ الشَّخْصِيَّةِ المُتَكَامِلَةِ لِلإِنْسَانِ العَرَبِيِّ.

وَأُحِبُّ أَنْ أُشِيرَ هُنَا إِلَى حَاجَةِ البُلْدَانِ العَرَبِيَّةِ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ التَّطْوِيرِ فِي أَهْدَافِ مَنَاهِجِهَا الدِّرَاسِيَّةِ، وَمُحْتَوَاهَا، وَاسْتَرَاتِيجِيَّاتِ تَطْبِيقِهَا وَتَقْوِيمِهَا. كَمَا نُؤَكِّدُ عَلَى أَهَمِّيَّةِ وُضُوحِ الفَلْسَفَةِ التَّرْبَوِيَّةِ العَرَبِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا المعِينَ الَّذِي نَشْتَقُّ مِنْهُ الأَهْدَافَ، وَالقَبَسَ الَّذِي تُحَدَّدُ فِي هَدْيِهِ الوَسَائِلُ وَالغَايَاتُ»[٢٢].

إِنَّ الوُقُوفَ لَحْظَةً أَمَامَ هَذَا الأَمْرِ يَجْعَلُنَا نَقْتَبِس الحَلَّ مِنْ غَيرِ مَزِيدِ عَنَاءٍ: مَن الَّذِي يَحِقُّ لَهُ وَضْعُ المَنَاهِجِ التَّرْبَوِيَّةِ؟ بَلْ مَنْ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَضَعَهَا؟

أَعْتَقِدُ أَنَّ المَنَاهِجَ بِرُمَّتِهَا بِحَاجَةٍ إِلَى إِعَادَةِ نَظَرٍ، وَبِنَاءٍ جَدِيدٍ، وَنَظَرِيَّةٍ تَرْبَوِيَّةٍ تَعْلِيمِيَّةٍ جَدِيدَةٍ أَسَاسُهَا بِنَاءُ الإِنْسَانِ الأَعْلَى، الخَارِقِ؛ عِمَادِ الوَطَنِ الأَعَلَى، الأَقوَى. يَقُومُ بِوَضْعِهَا وَصِيَاغَتِهَا كِبَارُ مُفَكِّرِينَا وَأُدَبَائِنَا وَبَاحِثِينَا، وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لَمَسَاتُهَا الأَوَّلِيَّةُ وَالخِتَامِيَّةُ مُوَقَّعَةً بِرِيشَةِ كُلِّيَّةِ التَّربِيَةِ؛ مِن

[٢٢] . د. صبحي حمدان أبو جلال: **دور التَّربية في تجاوز أزمات العصر** . ضمن مجلة: المعرفة . العدد ٣٧٠ . تموز/يوليو ١٩٩٤م . ص ٥٥.

حَيثُ الأَهْدَافُ وَالتَّمَارِينُ وَالأَسْئِلَةُ وَالأَسَالِيبُ الحَاجَاتُ ... وَغَيرُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ صَمِيمِ اخْتِصَاصِ المُفَكِّرِينَ التَّرَبَوِيِّينَ وَالنَّفسَانيِّينَ. **آخِذِينَ بِعَينِ الحُسْبَانِ دَائِمَاً أَنَّنَا لا نُرِيدُ أَنْ نَحْشُوَ رُؤُوسَ الطُّلاَّبِ بِالمَعْلُومَاتِ وَالمَعَارِفِ.**

* * *

ثانياً

عصف عقول المربِّين

اسْتَهْوَانِي عِنْوَانُ مَوضُوعٍ رَقِيقٌ أَنِيقٌ لأُسْتَاذِنَا الدُّكْتُورُ عَادِلُ العَوَّا فِي مَجَلَّةِ المُعَلِّمِ العَرَبِيِّ سَنَةَ ١٩٤٨م، وَهُوَ تَرْبِيَةُ المُرَبِّينَ، وَكِدْتُ أَسْتَبْدِلُ بِهِ العِنْوَانَ الَّذِي وَضَعْتُهُ أَوَّلاً فِي مَشْرُوعِ البَحْثِ، وَالَّذِي كَانَ قَاسِيَاً بِلَفْظِهِ، وَلَكِنِّي عَدَلْتُ عَنِ العِنْوَانِينِ كِلَيهِمَا لأَنَّ مَا نَصْبُو إِلَيهِ لَيسَ مُجَرَّدَ تَرْبِيَةِ المُرَبِّينَ، وَلاَ كُلُّ بِنَاءٍ يَقْتَضِي بِالضَّرُورَةِ نَسْفَ قَدِيمِ قَوَاعِدِهِ، فَكَانَ عَصْفُ عُقُولِ المُرَبِّينَ، فِي ظَنِّنَا، أَنْسَبَ تَعْبِيرٍ عَنْ مُرَادِنَا.

بِدَايَةً، نَحْنُ لاَ نَشُكُّ فِي كَفَاءَةِ أَحَدٍ، وَلاَ فِي قُدْرَتِهِ التَّرْبَوِيَّةِ، وَالَّذِي نُرِيدُهُ هُنَا بِاخْتِصَارٍ هُوَ لاَ إِيقَاظُ الضَّمَائِرَ بَلْ إِيقَادُ جَذْوَاتِهَا، وَإِثَارَةُ الدَّافِعِيَّةِ لِلْعَطَاءِ المخْلِصِ؛ وَالْكُلُّ مُخْلِصٌ، وِلَكِنَّنَا نُرِيدُ إِخْلاَصَ المِعْطَاءِ البَنَّاءِ الَّذِي يَتَفَانَى فِي بِنَاءِ الوَطَنِ القَوِيِّ بِقُوَّةٍ لاَ إِخْلاَصَ أَدَاءِ الوَاجِبِ بِأَمَانَةٍ وَحَسْبُ.

وَهُنَا نَتَسَاءَلُ: مَنْ هُمُ المرَبُّونَ الَّذِينَ نُرِيدُ عَصْفَ عُقُولِهِم وَإِيقَادَ جَذْوَةِ ضَمَائِرِهِم؟

انْطِلاَقَاً مِنْ مَعْنَى جَذْرِ التَّرْبِيَةِ نَجِدُ أَنَّ كُلَّ أَفْرَادِ المجْتَمَعِ مُرَبُّونَ، بِمَا يُكَافِؤُ «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُم مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»، فَالتَّرْبِيَةُ هِيَ الإِنْمَاءُ، وَيُرْدِفُهُ

الاصْطِلاَحُ بِالتَّكْرِيسِ، لِتَغْدُوَ صِنَاعَةَ السُّلُوكِ وَالعَادَةِ وَالتَّقْلِيدِ، وَلِذَلِكَ يُسِيئُنَا وَيُكْرِبُنَا تَنَصُّلُ أَو تَنَحِّي أَيِّ فَرْدٍ عَنْ دَائِرَةِ هَذِهِ المِسْؤُولِيَّةِ الأَمَانَةِ، وَلاَ سِيَّمَا أَنَّ الوَطَنَ بِحَاجَةٍ إِلَى جُهُودِ مَجْمُوعِ أَبْنَائِهِ وَخِبْرَاتِهِم.

وَلَكِنَّ المُرَبِّينَ المُعْتَرَفَ بِهِمْ نَوعَانِ؛ مُرَبُّونَ بِالفِطْرَةِ هُمُ الوَالِدُونَ وَمُرَبُّونَ بِالمِهْنَةِ هُمُ المُعَلِّمُونَ وَالمُدَرِّسُونَ، وَنَحْنُ بَأَمَسِّ مَا يَكُونُ مِنَ الحَاجَةِ إِلَى عَصْفِ عُقُولِ هَذَينِ النَّوعَينِ مِنَ المُرَبِّينَ بِشَكْلٍ خَاصٍّ:

فِي الأُسْرَةِ يَبْدِأُ البِنَاءُ، وَلاَ إِخَالُ أَنَّ ثَمَّةَ مَنْ يُجَادِلُ الآنَ فِي أَنَّ السَّنَوَاتِ الخَمْسَ الأُولَى مِنْ عُمْرِ الإِنْسَانِ . بَعْدَ اسْتِثْنَاءِ الفُرُوقِ الفَرْدِيَّةِ وَمَا شَذَّ عَنِ المَرَاحِلِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلنُّشُوءِ . هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ مُسْتَقْبَلَهُ، حَيثُ يَتَشَرَّبُ الطِّفْلُ السُّلُوكَاتِ وَالأَخْلاَقَ وَالمَبَادِئَ وَيَنْطَوِي عَلَيهَا لاَشُعُورُهُ. وَالمُشْكِلَةُ الَّتِي تَعْتَرِضُنَا هُنَا هِيَ أَنَّ النَّاسَ يَتَزَوَّجُونَ بِحُكْمِ العَادَةِ وَالحَاجَةِ، وَلاَ نَجْرُؤ عَلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ؛ مَنْ ذَا الَّذِي أَقْدَمَ عَلَى الزَّوَاجَ وَفَكَّرَ فِي مَسْأَلَةِ تَرْبِيَةِ الأَولاَدِ؟! لَعَلَّ التَّرْبِيَةَ؛ قَوَاعِداً وَمَبَادِئَاً وَأَسَالِيباً ... هِيَ الوَحِيدَةُ الَّتِي تَظَلُّ مُعَلَّقَةً. وَهَل تَحْتَاجُ المِسْأَلَةُ إِلَى تَفْكِيرٍ؟ لَقَدْ تَرَبَّينَا أَحْلَى تَرْبِيَةٍ وَلَمْ يَكُنْ آبَاؤُنَا لِيُمَيِّزُوا بَينَ الطِّيخِ وَالبِطِّيخِ!!

وَيَزْدَادُ الطِّينُ بِلَّةً فِيمَا يَرَاهُ بَعْضُ المُفَكِّرِينَ «مِنْ أَتْبَاعِ التَّقْلِيدِ . مِنْ . أَنَّ عَلَى المربِّي النَّجَاةَ مِنْ عَنَاءِ البَحْثِ فِي التَّرْبِيَةِ، وَالاعْتِمَادَ عَلَى مُسَلَّمَاتِ الطَّبِيعَةِ الإِنْسَانِيَّةِ الصَّالِحَةِ الطَّيِّبَةِ، وَالاقْتِصَارَ عَلَى البَسْمَةِ البَلْهَاءِ، وَالنَّظَرِ المُمْتِعِ السَّطْحِيِّ إِلَى الأَطْفَالِ وَالمُرَاهِقِينَ وَالشَّبَابِ، وَفَسْحِ المِجَالِ لِنُمُوِّهِم

وَتَرَعْرُعِهِم حَسْبَ غَرَائِزِهِم الطَّبِيعِيَّةِ، شَأْنُهُ شَأنَ البُسْتَانِيِّ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ حَبَّةَ الفَاصُولِيَاءِ إِذَا حَضَنَهَا رَحِمُ الأَرْضِ وَلاَقَتْ الشُّرُوطَ الطَّبِيعيَّةَ لِنُمُوِّهَا نَمَتْ وَنَضَجَتْ وَأَفَادَتْ، فَلَيسَ عَلَى النَّاسِ جَمِيعَاً، وَلاَ عَلَى المرَبِّينَ بِوَجْهٍ خَاصٍّ، مِنْ حَرَجٍ وَعَنَتٍ، وَقَدْ كَفَتْهُمُ الغَرِيزَةُ الطَّاهِرَةُ عَنَاءَ القِتَالِ، وَلاَ يُكَلِّفُهُمُ اللهُ فَوقَ مَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ سُرُورِ الدَّعَةِ، وَفَرَحِ الكَسَلِ، وَابْتِهَاجِ التَّقَاعُسِ وَالْخُمُولِ، فَلاَ حَاجَةَ إِذَنْ لِتَرْبِيَةِ المرَبِّينَ إِطْلاقَاً»[٢٣].

وَالحَقُّ أَنَّنَا لَتَعْتَوِرْنَا الْحَيرَةُ فِي كَيفِيَّةِ تَرْبِيَةِ هَؤُلاءِ المرَبِّينَ فِي إِطَارِ رَاهِنِيَّتِنَا التَّارِيخِيَّةِ، «فَكُلُّ إِنْسَانٍ شَابٌّ يتَّقِدُ، وَلَو فِي زَعْمِهِ، وَيَتَحَمَّسُ لِسَائِرِ الأُمُورِ مَا عَدَا مَسْأَلَةِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيهَا فِي الوَاقِعِ مَصِيرُ أُمَّةٍ، وَمُسْتَقْبَلُ وَطَنٍ، وَمَنْحَى أَجْيَالٍ وَتَارِيخٌ»[٢٤]. وَلِذَلِكَ لاَ يَتَرَدَّدُ أُسْتَاذُنَا **عَادِلُ العَوَّا** «لَحْظَةً فِي الإِيمَانِ بِضَرُورَةِ تَدَخُّلِ الْمُجْتَمَعِ، وَالدَّولَةِ أَيضَاً عِنْدَ الاقْتِضَاءِ، وَفَرْضِ رَقَابَةٍ عُرْفِيَّةٍ أَو رَقَابَةٍ قَانُونِيَّةٍ، تَصْحَبُهَا الْمَسْؤُولِيَّةُ وَالجَزَاءُ، فِي سَبِيلِ صِيَانَةِ الأَطْفَالِ، وَهُم مِلْكُ الوَطَنِ، وَذُخْرُ الأُمَّةِ، وَثَرْوَةُ البِلاَدِ البَشَرِيَّةُ»[٢٥]. وَهُوَ حَلٌّ، عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ، غَيرُ مَأمُونِ العَوَاقِبِ، لأَنَّ المجْتَمَعَ وَالدَّولَةَ يَتَدَخَّلانِ فِيمَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنْ مِثْلِ تَرْكِ المدْرَسَةِ وَالتَّعْذِيبِ ... وَلَيسَ هَذَا كُلُّ مُبْتَغَانَا. إِنَّنَا نُرِيدُ اسْتِغْلاَلَ هَذِهِ المرْحَلَةِ الحَاسِمَةِ فِي تَكْوِينِ الإِنْسَانِ لَنَزْرَعَ فِيهِ بِذْرَةَ الإِنْسَانِ الأَقْوَى الأَعْلَى المتَوَحِّدِ مَعَ وَطَنِهِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الأَقْوَى

---

[٢٣] . د. عادل العوا: **تربية المربين** . ضمن مجلة: المعلم العربي . وزارة المعارف السُّوريَّة . العدد ٢ . السَّنة ٢ . صفر ١٣٦٨هـ/كانون الأَوَّل ١٩٤٨م . ص ١٥١.

[٢٤] . د. عادل العوا: **تربية المربين** . ص١٥٥.

[٢٥] . د. عادل العوا: **تربية المربين** . ص١٥٦.

الأَعْلَى. وَلَنْ نَكْتَرِثَ فِي أَنْ يُسَمَّى ذَلِكَ عُنْصِرِيَّةً أَو تَعَصُّباً أَو تَطَرُّفاً، فَهَذَا مَا تَفْعَلُهُ جُلُّ الأُمَمِ جَهَاراً نَهَاراً وَلاَ تَقْبَلُ فِي سُلُوكِهَا لَومَةَ لائِمٍ.

أَمَّا المُرَبُّونَ بِالْمِهْنَةِ فَعَلَى عَاتِقِهِم تَقَعُ الْمَسْؤُولِيَّةُ العُظْمَى، وَلاَ أَظُنُّ أَنَّ عَامِلاً فِي التَّرْبِيَةِ يَجْهَلُ مَقُولَةَ **وِنْسْتُون تِشِرْشِل** الشَّهِيرَةِ عِنْدَمَا قِيلَ لَهُ: إِنَّ إِنْجِلْتَرَةَ انْهَارَت، فَسَأَلَ عَنِ القَضَاءِ وَالتَّرْبِيَةِ فَأُجِيبَ بِأَنَّهُمَا الوَحِيدَانِ السَّلِيمَانِ، فَقَالَ: لاَ تَخَافُوا، سَتَنْهَضُ مِنْ جَدِيدٍ. وَعِنْدَمَا سُئِلَ أَحَدُ المسْؤُولِينَ الأَلْمَانِ عَنْ سِرِّ نَهْضَةِ أَلْمَانِيَا السَّرِيعِ بَعْدَمَا انْسَحَقَتْ فِي الحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ قَالَ: «لَقَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيءٍ عَلَى حَالِهِ، وَلَكِنَّنَا غَيَّرْنَا المرَبِّينَ كُلَّهُم». وَانْطِلاقَاً مِنْ أَنَّ مُسْتَقْبَلَ الأُمَّةِ يُصْنَعُ فِي مَدَارِسِهَا قَالَ الرَّئِيسُ الأَمَرِيكِيُّ السَّابِقُ **جُورج بُوش**: «إِنَّ مَنْ يَتَسَاءَلُ كَيفَ سَيَكُونُ الْقَرْنُ الْحَادِي وَالعِشْرُونَ، عَلَيهِ أَنْ يَجِدَ الجَوَابَ عَنْ سُؤَالِهِ فِي الفُصُولِ الدِّرَاسِيَّةِ الأَمَرِيكِيَّةِ».

صَحِيح أَنَّنَا لَمْ نُشَكِّكْ فِي كَفَاءَةِ أَحَدٍ، وَلاَ فِي إِخْلاَصِهِ، وَلَكِنَّنَا نَخْدَعُ أَنْفُسَنَا إِذَا قُلْنَا إِنَّ عَمَلِيَتَي التَّرْبِيَةِ والتَّعْلِيمِ بِحَالَةٍ يُمْكِنُ قَبُولُهَا وَلَو عَلَى مَضَضٍ. وَأَكْثَرُ مَا يَصْدِمُنَا بِسُوئِهِ هُنَا، مِنْ دُونِ نِسْيَانِ المَنَاهِجَ الَّتِي سَبَقَ القَولُ فِيهَا، هِيَ انْحِدَارُ المسْتَوَى التَّرْبَوِيِّ وَالتَّعْلِيمِيِّ فِي المدَارِسِ، وَلا نَسْتَطِيعُ إِغْمَاضَ أَعْيُنِنَا عَنِ الجَامِعَاتِ؛ لَقَدْ أَصْبَحَتِ التَّرْبِيَةُ التَّعْلِيمِيَّةُ عَمَلِيَّةً آلِيَّةً بَحْتَةً حَوَّلَتِ المعَلِّمَ وَالمتَعلِّمَ إِلَى آلاَتِ تَسْجِيلٍ؛ مُسْتَقْبِلَةٍ وَمُرْسِلَةٍ، تَأْبَى تَجَاوُزَ ذَلِكَ. وَانْغَرَزَتِ النَّفْعِيَّةُ والذَّرائعيَّةُ فِي نُفُوسِ كَثِيرٍ مِنَ المعَلِّمِينَ وَالمدَرِّسِينَ،

وَغَلَّبُوا هُمُومَهُم الشَّخْصِيَّةَ عَلَى مُقَدَّسِ مَهَامِّهِم، فَكَثُرَتْ اللاَّمُبَالاةُ، وَاسْتَشْرَى المِلَلُ، وَنَشِطَتْ الدُّرُوسُ الخُصُوصِيَّةُ الَّتِي لاَ أَعْتَقِدُهَا إِلاَّ أَكْبَرَ مُدَمِّرٍ لِلْعَمَلِيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ. وَتَضَافَرَ مَعَ ذَلِكَ الأَسَالِيبُ التَّرْبَوِيَّةُ الحَدِيثَةُ المُفْعَمَةُ بَل المُنْتَبِجَةُ بِالإِنْسَانِيَّةِ، الَّتِي أَفْقَدَتِ الثَّوَابَ وَالعِقَابَ مَا يُرْتَجَى مِنْهُمَا، حَتَّى فِي أَكْثَرِ دُوَلِ العَالَمِ تَقَدُّمَاً.

وَبِغَضِّ النَّظَرِ عَمَّا يَجْرِي فِي كُلِّ دُوَلِ العَالَمِ الَّتِي لاَ تَهُمُّنَا إِلاَّ بِقَدْرِ مَا يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ تَجَارِبِهَا، فَإِنَّ مَعَاهِدَ إِعْدَادِ المُعَلِّمِينَ وَالمُدَرِّسِينَ وَالجَامِعَاتِ لاَ تُعْنَى بِطُلاَّبِهَا إِلاَّ مِنْ حَيثُ إِعْدَادُهُم لِلتَّعلُّمِ وَمَحْضِ تَلَقِّي المَعْرِفَةِ، وَكَأَنَّ وَظِيفَةَ الإِنْسَانِ أَنْ يَخْتَزِنَ المَعْلُومَاتِ فِي ذَاكِرَتِهِ!!

لَقَدْ كَانَ العَامِلُ المَادِيُّ هَامًّا وَحَاسِمَاً فِي تَدَهْوُرِ العَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ، بِعَدَمِ مُبَالاَةِ المُعَلِّمِينَ وَتَهَاوُنَهُم فِي هَذِهِ العَمَلِيَّةِ وَتَقْصِيرِهِم فِيهَا، وَلَكِنَّ إِعَادَةَ بَنَاءَ المُعَلِّمِينَ الآنَ لَنْ تَكُونَ بِمُجَرَّدِ تَحْسِينِ الوَضْعِ المَادِّيِّ لأَنَّ الخَلَلَ لَحِقَ الأَذْهَانَ وَالعَقْلِيَّاتِ الاجْتِمَاعِيَّةَ لِلْمُعَلِّمِينَ وَالنَّاسِ، وَمِنْ غَيرِ حَرَجٍ نَقُولُ: **يَبْدَأُ المُتَسَوِّلُ بِالحَاجَةِ وَلَكِنَّهُ يَحْتَرِفُ بِالعَادَةِ**. إِنَّ الْمَسْأَلَةَ الآنَ أَكْبَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ مَسْأَلَةِ رَفْعِ الرَّوَاتِبِ وَتَحْسِينِ الوَضْعِ المَادِّيِّ لِلْمُعَلِّمِينَ، **وَمِنْ هُنَا تَبْدَأُ المُشْكِلَةُ وَهُنَا تَنْتَهِي**.

مِنَ اللاَّزِمِ الأَكِيدِ أَنْ يُدْرِكَ التَّرْبَوِيُّونَ جَمِيعُهُم مَدَى خُطُورَةِ مَوَاقِعِهِم، وَأَهَمِّيَّةِ الأَدْوَارِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُمَارِسُوهَا؛ فَالتَّرْبِيَةُ الَّتِي نَحْنُ فِي إِطَارِهَا سِيَاسِيَّةُ المِضْمُونِ وَالبُعْدِ، وَيَعْسُرُ جِدًّا الفَصْلُ بَينَ التَّرْبِيَةِ وَالسِّيَاسَةِ، فَالتَّرْبَوِيُّ

سِيَاسِيٌّ، «وَ**مِكْيَافِيلِّي** لاَ يَرَى فِي السِّيَاسَةِ إِلاَّ لُعْبَةَ إِرَادَاتٍ وَأَهْوَاءٍ وَمَوَاهِبَ فَرْدِيَّةٍ»[٢٦]، وَيُؤَكِّدُ **نِيتْشِه** أَنَّ «مَا فُطِرْنَا عَلَيهِ هُوَ أَنْ نَخْلُقَ كَائِناً يَتَفَوَّقُ عَلَينَا»[٢٧]، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ **المرَبِّي** مِنْ أَجْلِ مَجْدِ الوَطَنِ، لأَنَّ قُوَّةَ الإِنْسَانِ؛ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَعِزَّتَهُ وَكَرَامَتَهُ رَهْنُ قُوَّةِ الوَطَنِ وَعِزَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ. وَمَا أَجْمَلَ أَنْ نَتَمَثَّلَ هُنَا مُجْتَزَءًا مِنْ عِبَارَةٍ **نِيتْشَوِيَّةٍ** تَقُولُ: «عَلَيكَ أَنْ تَصْلِي نَفْسَكَ كُلَّ يَومٍ حَرْبَاً»[٢٨]. وَلْنَضَعْ فِي اعْتِبَارِنَا دَائِمَاً، عَلَى تَبَايُنِ مُسْتَوَيَاتِنا وَمَيَادِينِنَا، أَنَّهُ «لَيسَ مِنَ الحَقِّ فِي شَيءٍ أَنْ تَكُونَ الطُّرُقُ المبَاشِرَةُ هِيَ دَائِمَا أَفْضَلُ الطُّرُقِ لِبُلُوغِ الهَدَفِ»[٢٩].

* * *

[٢٦] . جان توشار: **تاريخ الأَفكار السِّياسية** . ٣٦٩.

[٢٧] . نيتشه: **هكذا تكلَّم زرادشت** . ص ١٠.

[٢٨] . نيتشه: **هكذا تكلَّم زرادشت** . ص ٦.

[٢٩] . د. عادل العوَّا : **سياسة تربويَّة** . ضمن مجلة: المعلِّم العربي . وزارة المعارف السُّوريَّة . العدد ٣ . السَّنة ٩ . جمادى الآخرة ١٣٧٥هـ/كانون الثَّاني ١٩٥٦م . ص ١٦٤.

ثالثاً
التَّربية وكلِّيَّة التَّربية

غَيرُ خَافٍ أَنَّ التَّرْبِيَةَ لَيسَتْ هِيَ كُلِّيَّةَ التَّرْبِيَةِ، فَالتَّرْبِيَةُ إِرْثٌ حَضَارِيٌّ أَوَّلاً، وَتَجْرِبَةُ أَجْيَالٍ ثَانِيَاً، وَصَدًى لِلْوَاقِعِ المُعَاشِ ثَالِثَاً، وَرَابِعَاً هِيَ عَمَلِيَّةٌ يُقَالُ إِنَّهَا مُنَظَّمَةٌ مَدْرُوسَةٌ تَقُومُ بِهَا وِزَارَةُ التَّرْبِيَةِ بِوَسَاطَةِ مُعَلِّمِيهَا وَمُدَرِّسِيهَا وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ مَعَ وَقْفِ التَّنْفِيذِ، لأَنَّ مَا يَدُورُ فِي المَدَارِسِ لاَ يَعْدُو نَقْلَ المَعْلُومَاتِ بِصُورَةٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ رَدِيئَةً فَهِيَ فِي أَحْسَنِ حَالاَتِهَا غَيرُ جَيِّدَةٍ أَبَدَاً. وَإِلَى جَانِبِ ذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ التَّرْبِيَةَ جُزْءٌ صَمِيمِيٌّ مِنَ الشَّخْصِيَّةِ وَخَصَائِصِهَا الَّتِي تَضْطَلِعُ التَّرْبِيَةُ ذَاتَهَا بِالنَّصِيبِ الأَوفَرِ فِي تَكْوِينِهَا.

فَمَا هُوَ مَوقِعُ كُلِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ مِنَ التَّرْبِيَةِ؟

لَنْ نُنَاقِشَ ذَلِكَ وَفْقَ مُقْتَضَيَاتِ المَنْطِقِ، وَلاَ بِالْمُقَارَنَةِ مَعَ مَا هُوَ الأَمْرُ عَلَيهِ فِي البُلْدَانِ المتَطَوِّرَةِ أَوِ المتَخَلِّفَةِ، وَلاَ عَلَى ضَوءِ النَّظَرِيَّاتِ المَعْرِفِيَّةِ وَالتَّصْنِيفَاتِ العَلْمِيَّةِ... وَلَكِنْ لاَ يَجُوزُ إِلاَّ أَنْ نَكُونَ عَقْلانيِّينَ فِي مُنَاقَشَتِنَا، وَمُنَاقَشَتُنَا وَأُطْرُوحَاتُنَا وَاقْتِرَاحَاتُنَا مَبْنِيَّةٌ كُلُّهَا عَلَى العَقْلِيَّةِ الثَّورِيَّةِ الْمُنْبَثِقَةِ مِنْ حَاجَاتِنَا الْمُلِحَّةِ لا إِلَى التَّرْمِيمِ، وَلاَ إِلَى التَّرْقِيعِ، وَلاَ إِلَى إِعَادَةِ البِنَاءِ، وَلَكِن إِلَى البِنَاءِ؛ بِنَاءِ المسْتَقْبَلِ؛ **مُسْتَقْبَلِ الأَبْنَاءِ وَالأَحْفَادِ**، بِمَعْنَى البِنَاءِ الرَّاسِخِ المتِينِ القَوِيمِ لاَ بِنَاءَ الإِيوَاءِ المرْحَلِيِّ؛ التَّرْقِيعِيِّ، الَّذِي تَظْهَرُ نَتَائِجُهُ سَرِيعَاً

وَتَتَلاشَى سَرِيعَاً، **فَنَحْن لا نُرِيدُ أَنْ تَظْهَرَ النَّتَائجُ بِسُرْعَةٍ بَقَدْرِ مَا نُرِيدُ أَنْ تَظْهَرَ بِقُوَّةٍ وَرُسُوخٍ.**

لأَنَّ الأَسَاسَ فِي بِنَاءِ الإِنْسَانِ هُوَ التَّعْلِيمُ، وَلاَ سِيَّمَا فِي المَرَاحِلِ المُبَكِّرَةِ، وَلاَ تَقِلُّ المَرَاحِلُ التَّالِيَةُ أَهَمِّيَّةً عَنْ ذَلِكَ، بِمَعْنَى أَنَّ العَمَلِيَّةَ التَّعْلِيمِيَّةَ بِرُمَّتِهَا هِيَ المَسْؤُولُ الأَكْبَرُ عَنْ عَمَلِيَّةِ بِنَاءِ الإِنْسَانِ، لِنَصِلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى التَّغْذِيَةِ التَّرْبَوِيَّةِ المُرْتَدَّةِ، حَيثُ نَطْمَئِنُ إِلَى التَّرْبِيَةِ البَيتِيَّةِ الَّتِي سَتَغْدُو تَقْلِيدَا حَضَارِيًّا قَائِمَا عَلَى دَعَائِمَ قَوِيمَةٍ وَأَسَالِيبَ سَلِيمَةٍ. مِنْ هُنَا نَجِدُ أَنَّ الدَّورَ الَّذِي يُمْكِنُ بَلْ يَجِبُ أَنْ تَلْعَبَهُ كُلِّيَّةُ التَّرْبِيَةِ كَبِيرٌ وَكَبِيرٌ جِدًّا. وَيُمْكِنُنَا، فِيمَا يَلِي، رَسْمُ مَلاَمِحِ هَذَا الدَّورِ الَّذِي نَنْتَظِرُ، بَلْ نَرْجُو إِغْنَاءَهُ أَو تَعْدِيلَهُ بِمَزِيدٍ مِنَ الآرَاءِ وَالاقْتِرَاحَاتِ الَّتِي تَقُودُ إِلَى القِيَامِ بِهَذَا الدَّورِ عَلَى أَفْضَلِ مَا يَكُونُ:

إِنَّ مَعَاهِدَ إِعْدَادِ المُعَلِّمِينَ اللاَّحِقَةَ لِلْمَرْحَلَتَينِ الإِعْدَادِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ وُجِدَتْ لِدَورٍ انْتَهَى وارْتَحَلَ، وَلَكِنَّهَا لِلأَسَفِ مَازَالَتْ قَائِمَةً فِي مُعْظَمِ الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ. وَخَيرُ سَبِيلٍ مَنْظُورٍ لِحَلِّ مُشْكِلَةِ العَمَلِيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ بِاتِّجَاهِ المُسْتَقْبَلِ هُوَ احْتِضَانُ كُلِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ لِمُعَلِّمِي مَرَاحِلِ الحَضَانَةِ وَالتَّحْضِيرِيِّ وَالابْتَدَائِيِّ وَالإِعْدَادِيِّ بِضَمِّ هَذِهِ المَعَاهِدِ إِلى كُلِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ، وَجَعْلِ مُدَّةِ الدِّرَاسَةِ أَو الإِعْدَادِ مُدَّةَ إِجَازَةٍ جَامِعِيَّةٍ . عَلَى نَحْوِ مَا سَتُقْدِمُ عَلَيهِ كُلِّيَّةُ التَّرْبِيَةِ فِي سُورِيَة .

وَلَكِنَّ الَّذِي يَجِبُ لَفْتُ النَّظَرِ إِلَيهِ هُوَ مُبْتَغَانَا مِنَ العَمَلِيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ، الَّذِي لا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ الكَفَاءَةِ المَعْرِفِيَّةِ لِلْمُعَلِّمِينَ وَالمُتَعَلِّمِينَ وَحَسْبُ، بَلْ يَتَعَدَّاهَا إِلَى المَهَارَاتِ الفَنِّيَّةِ فِي صُنْعِ الإِنْسَانِ الأَقْوَى الأَعْلَى،

عَلَى طَرِيقِ بِنَاءِ الوَطَنِ الأَقْوَى الأَعْلَى. وَهَذَا مَا يُمْكِنُ أَن يَتِمَّ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الإِجْرَاءَاتِ وَالأَسَالِيبِ وَالوَسَائِلِ غَيرِ الخَافِيَةِ عَنْ المخْتَصِّينَ.

هَذَا مَا يَخُصُّ المسْتَقْبَلَ، فَمَاذَا نَفْعَلُ بِشَأنِ الحَاضِرِ؟ هَلْ نَتْرُكُهُ لِلتِّلقَائِيَّةِ وَالعَشْوَائِيَّةِ اللَّتَانِ نَتَخَبَّطُ بِهِمَا؟!

لَو أَنَّ الحَاضِرَ مُقْتَصِرٌ عَلَى جِيلٍ أَو جِيلَينِ أَو أَكْثَرَ بِقَلِيلٍ مَقْبُولٍ لَضَحَّينَا بِهِم عَلَى الطَّرِيقَةِ النِّيْتْشَوِيَّةِ، وَقُلْنَا: يُعَوِّضُ اللهُ!! وَلَكِنَّ الحَاضِرَ يَلُفُّ بِعَبَاءَتِهِ نَحْوَ عِشْرِينَ جِيلاً تَزِيدُ وَلاَ تَقِلُّ. وَهَؤُلاءِ مَنْ سَيَكُونُونَ عِمَادَ الأُمَّةِ لأَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَادِمَةً!! هَذَا إِذَا افْتَرَضْنَا أَنَّ المربِّينَ الجُدُدَ هُمُ الَّذِينَ سَتُعْهَدُ إِلَيهِمُ الأَجْيَالُ القَادِمَةُ كُلُّهَا بَعْدَ سَنَوَاتٍ لا تَتَجَاوَزُ خَمْسَاً.

وَإِذَا مَا تَجَاهَلْنَا تَأَثِيرَ السَّابِقِ فِي اللاَّحِقِ، وَبِعَمَلِيَّةٍ حِسَابِيَّةٍ بَسِيطَةٍ نَجِدُ أَنَّنَا لَنْ نَرَى أَيَّ إِثْمَارٍ لِلتَّرْبِيَةِ المنْشُودَةِ قَبْلَ خَمْسِينَ سَنَةً، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ مُعَالَجَةَ الحَاضِرِ أَمْرٌ لا مَفَرَّ مِنْهُ، وَلاَ تَقِلُّ أَهَمِّيَّتُهُ عَنْ مُعَالَجَةِ المسْتَقْبَلِ، لا لِتَكْتَحِلَ أَعيُنُنَا بِرُؤْيَةِ ثِمَارِ هَذِهِ التَّرْبِيَةِ وَحَسْبُ، بَلْ لِنَكْسِبَ عَامِلَ الزَّمَنِ الَّذِي لَنْ يَرْحَمَ أَبَدَاً أَيَّ تَأَخُّرٍ أَو تَقَاعُسٍ فِي نُهُوضِنَا: يَجِبُ أَنْ نَسْتَنْفِدَ كُلَّ طَاقَاتِنَا وَنَسْتَنْزِفَهَا فِي إِنْقَاذِ مَا يُمْكِنُ إِنقَاذَهُ مِنْ أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا، لِيُسْهِمَ الجَمِيعُ فِي بِنَاءِ المسْتَقْبَلِ الَّذِي لا نَتَمَنَّاهُ إِلاَّ مُشْرِقَاً. وَلاَ يَجُوزُ أَنْ نَنْسَى بِنَاءَ أَنْفُسِنَا؛ نَحْنُ بَائِعِي الكَلاَمِ وَمُلَقِّنِي المعْرِفَةِ، لأَنَّنَا عَلَى عَظِيمِ شَهَادَاتِنَا، وَمُتَلاَطِمِ مَعَارِفِنَا نَفْتَقِرُ إِلَى مُخْتَلِفِ ضُرُوبِ السُّلُوكَاتِ الحَضَارِيَّةِ، وَلاَ نَعْرِفُ مِنَ الوَلاَءِ وَالانْتِمَاءِ لِلأُمَّةِ إِلاَّ العَوَاطِفَ المهْتَرِئَةِ، عَلَى جَيَشَانِهَا أَحيَانَاً.

بِغَضِّ النَّظَرِ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ تُقَدِّمَهُ الميادين الأُخرى،وَهُوَ لازِمٌ، وَلا سِيَّمَا الإِعْلامُ، يَحِقُّ لِكُلِّيَّة التَّرْبِيَةِ أَنْ تُطَالِبَ بِاحْتِوَاءِ أَبْنَائِهَا وَإِعَادَةِ تَأهِيلِهِم مِنْ جَدَيدٍ. هَذِهِ الخُطْوَةُ عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ الصُّعُوبَةِ لا نَعْجَزُ عَنِ التَّكَهُّنِ بِمَدَاهَا، وَلَكِنَّ الصَّبْرَ عَلَى الدَّوَاءِ خَيرٌ أَلْفَ أَلْفَ أَلْفَ مَرَّةٍ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الدَّاءِ. وَلِذَلِكَ لا يَجُوزُ أَنْ تَكْتَفِي كُلِّيَّةُ التَّرْبِيَةِ بِالمطَالَبَةِ بَلْ عَلَيهَا أَنْ تَفْرِضَ عَلَى المرَبِّينَ أَنْ يَعُودُوا إِلَيهَا لِيُخَرَّجُوا فِيهَا بِالشَّهَادَةِ الجَدِيدَةِ، وَلَيسَ مُبَالَغَةً أَبَدَاً أَنْ يُلْزَمَ المرَبُّونَ مِن فِئَةٍ عُمْرِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ بِالدِّرَاسَةِ فِي كُلِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ الجَدِيدَةِ دِرَاسَةً نِظَامِيَّةً تَعْقُبُهَا شَهَادَةٌ رَسْمِيَّةٌ، بَعْدَ إِعْدَادِ خُطَّةٍ مُنَاسِبَةٍ تَضْمَنُ عَدَمَ تَعَطُّلِ العَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ أَوَّلاً، وَتَصِلُ إِلَى إِعَادَةِ تَأهِيلِ جَمِيعِ أَعْضَاءِ هَذِهِ الفِئَةِ العُمْرِيَّةِ، أَمَّا الفِئَةُ الأُخْرَى الَّتِي يَتَجَاوَزُ أَعْضَاؤُهَا سِنًّا مُعيَّنَاً مَدْرُوساً فَتَخْضَعُ لِدَورَاتٍ مُكَثَّفَةٍ؛ تَحْتَرِمُ خِبْرَاتِهَا، وَتَسْتَفِيدُ مِنْهَا، وَتُسَدِّدُهَا إِلَى المثُلِ المنْشُودَةِ. لِنَصِلَ بِذَلِكَ خِلالَ أَقْصَرِ زَمَنٍ مُمْكِنٍ إِلَى إِعَادَةِ بِنَاءِ كُلِّ الأُطُرِ التَّرْبَوِيَّةِ بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ المرْحَلَةِ القَادِمَةِ مِنْ عُمْرِ الأُمَّةِ.

وَالَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَاضِرَاً فِي الأَذْهَانِ هُنَا بِمَا لا يَقْبَلُ الشَّكَّ وَلاَ الجِدَالَ وَلاَ التَّنَازُلَ أَبَدَاً هُوَ الجِدِّيَّةُ وَالصَّرَامَةُ وَالمُحَاسَبَةُ مَعَاً، لأَنَّ أَيَّ خَلَلٍ أَو تَقْصِيرٍ فِي أَيٍّ مِنْهَا سَيُحِيلُ كُلَّ الجُهُودِ المَبْذُولَةِ إِلَى عَجَلَةٍ تَدُورُ فِي الرَّمْلِ؛ تَدُورُ وَتَدُورُ وَلَكِنَّهَا لاَ تَتَقَدَّمُ خُطْوَةً وَاحِدَةً إِلَى الأَمَامِ.

* * *

رابعاً

التَّدريب المستمر

رُوِيَ أَنَّ مَايكِلْ أَنْجْلُو سُئِلَ فِي أَوَاخِرِ سِنِيِّ حَيَاتِهِ:

. إِلَى أَينَ تَذْهَبُ سَرِيعَاً هَكَذَا وَالثُّلُوجُ تُغَطِّي طُرُقَ المَدِينَةِ؟

فَأَجَابَ: إِنِّي مُتَّجِهٌ إِلَى المَدْرَسَةِ، فَلاَ بُدَّ مِنْ مُحَاوَلَةِ تَعَلُّمِ شَيءٍ قَبْلَ فَوَاتِ الآوَانِ[٣٠].

لَو أَنَّ إِثْبَاتَ ضَرُورَةِ التَّدْرِيبِ المسْتَمِرِّ وَأَهَمِّيَّتِهِ، فِي أَيِّ مَيدَانٍ مِنَ المَيَادِينِ، لاَ يَتِمُّ إِلاَّ بِكَثْرَةِ الشَّوَاهِدِ المماثِلَةِ لِمَا رَوَيناهُ عَنْ **مايكل أَنجلو** لَمَلأْنَا مِئَاتِ الصَّفَحَاتِ مِنْ بُطُونِ التَّارِيخِ وَمُتُونِ الحَاضِرِ، وَلَكِنَّهَا شِبْهُ مُسَلَّمةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى بُرْهَانِهَا فِي ذَاتِهَا، فَغَيرُ خَافٍ انْبِثَاقُ المعْطَيَاتِ الجَدِيدَةِ وَتَجَدُّدَ المعْطَيَاتِ القَدِيمَةِ كُلَّ يَومٍ وَكُلَّ سَاعَةٍ بِمَا يَفْرِضُ عَلَى المرْءِ أَيًّا كَانَ حَقْلُ عَمَلِهِ أَنْ يُوَاكِبَ هَذِهِ المسْتَجِدَّاتِ حَتَّى لاَ يَصِيرَ آبِدَةً لاَ تَفْتَرِقُ عَنِ الأَوَابِدَ إِلاَّ بِتَحَرُّكِهَا.

إِنَّ مَرَاكِزَ التَّدْرِيبِ المسْتَمِرِّ القَائِمَةَ الآنَ، انْطِلاَقَاً مِمَّا نَلمسُهُ مِن نَتَائَجَ، لا تَفِي أَبَدَاً بِأَغْرَاضِنَا التَّرَبَوِيَّةِ، وَلاَ بِأَهْدَافِنَا، وَلاَ بِغَايَاتِنَا. يَجِبُ أَن نَبحَثَ

[30] - Alain: Props L'Esthétique . P.V.F. Paris . 1949 . P.18.

عَن الصِّيغَةِ المنَاسِبةِ لِلْمَرْحَلَةِ الجَدِيدَةِ القَادِمَةِ الَّتِي نُحَاوِلُ رَسْمَ مَلاَمِحِهَا وَمَعَالِمِهَا. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ عَلَينَا أَن نَأخُذَ بِعَينِ الاعتِبَارِ لا مُجَرَّدَ مَعرِفَةِ أَحْدَثِ تِقَنِيَّاتِ التَّربِيَةِ وَالتَّعلِيمِ وَحَسْبُ، بَل استِنفَادَ كُلِّ إِمْكَانَاتِهَا وَإِمكَانَاتِنَا بِمَا يُجَسِّدُ أَهدَافَنَا التَّرْبَوِيَّةَ وَالغَايَاتِ الَّتِي نَنْشُدُ تَحقِيقَهَا. وَلاَ يَتِمُّ ذَلَكَ، وَلاَ تَتَجَلَّى أَهَمِّيَّتُهُ «إِلاَّ إِذَا اتَّضَحَت الأَهدَافُ الكُبْرَى لِلْحَيَاةِ العَرَبِيَّةِ المُثْلَى، **وَهَذِهِ الأَهدَافُ لَنْ تَكُونَ مُجْدِيَةً، وَلَن تَتَحَوَّلَ إِلَى مُثُلٍ حَيَّةٍ نَافِعَةٍ مُتَطَوِّرَةٍ إِلاَّ إِذَا انْبَثَقَتْ عَن شُعُورِ الأُمَّةِ الحَيِّ، وَحَرِصَتْ عَلَى تَفَهُّمِ مُشْكِلاتِ وَاقِعِنَا الاجتِمَاعِيِّ الكَثِيرَةِ المُعقَّدَةِ**»[٣١]. وَأَكَّدَت «تِبْيَانَ ضَرُورَةِ التَّعَاوُنِ وَالتَّكَامُلِ بَينِ الأَفرَادِ وَالمجْتَمَعِ، بَينَ المَوَاطِنِينَ وَالأُمَّةِ، حَتَّى يَنْمُو الفَردُ، وَيَنْمُو المجْتَمَعُ، نُمُوًّا مُتَلازِمَاً مُتَّسِقًا، وَكُلُّ تَرْبِيَةٍ لا تَهْدِفُ إِلَى هَذَا النُّمُوِّ المضَاعَفِ المَوَحَّدِ مَعَاً، تَرْبِيَةٌ فَاشِلَةٌ مُتَخَلِّفَةٌ»[٣٢].

هَذِهِ بَعْضُ تَدَاعِيَاتٍ، بَلْ أَحْلاَمٍ، بَلْ أُمْنِيَاتٍ،كَانَتْ قَبْلَ البَدْءِ بِتَسْطِيرِهَا أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ .... وِلَكِنَّهَا لَيستْ أَوهَامَاً أَبَدَاً أَبَدَاً. إِنَّهَا فِي أَدْنَى حُدُودِ مَا نَرْجُو مَعَالِمَ مُخَطَّطِ مَشْرُوعٍ كَبِيرٍ نَأمُلُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا وَلَو أَقَلُّ إِلْمَاحَةٍ إِلَى أَكثر مَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ فَائِدَةٌ.

* * *

[٣١] . د. عادل العوَّا : **فلسفة تربويَّة** . ضمن مجلة: المعلِّم العربي . وزارة المعارف السُّوريَّة . العدد ٢.١ . السَّنة ٩ . ربيع الثَّاني وجمادى الأُولى ١٣٧٥هـ/تشرين الثَّاني وكانون الثَّاني ١٩٥٥م . ص ١٥.

[٣٢] . د. عادل العوَّا : **فلسفة تربويَّة** . ضمن مجلة: المعلِّم العربي . ص ١٤.

خامساً

نـحو فلسفة تربـوية جديـدة

رُبَّما لا يَحْتَاجُ فَهْمُ وَاقِعِ العَرَبِ المعَاصِرِ إِلَى كَثِيْرٍ مِنَ البَدَاهَةِ أَو الحِنْكَةِ. وَرُبَّمَا يَصِحُّ القَوْلُ مِنْ دُوْنِ مُبَالَغَةٍ إنَّ الصِّغَارَ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ يُدْرِكُوْنَ مِنْ دُوْنِ شَرْحٍ ولا تِبْيَانٍ أَنَّ العَالَمَ كُلَّهُ مُتَكَالِبٌ عَلَى العَالَمِ العَرَبِيِّ خَاصَّةً وَالإِسْلامِيِّ عَامَّةً.

وَإِلَى جَانِبِ ذلِكَ، وَأَيْضاً مِنْ دُوْنِ كَثِيرٍ مِنَ الشَّرحِ أَو التَّوْضِيْحِ، يُدْرِكُوْنَ أَنَّ الْمُتَغَيِّرَاتِ الدَّوْلِيَّةَ عَلَى مُخْتَلَفِ الأَصْعِدَةِ؛ السِّيَاسِيَّةِ وَالاقْتِصَادِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالتَّطَوُّرَاتِ العِلْمِيَّةَ فِي مُخْتَلَفِ مَيَادِيْنِ العِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ... تَزِيْدُ فِي الضُّغُوْطِ عَلَى العَالَمِ العَرَبِيِّ وَتَلْعَبُ أَدْوَاراً خَطِيْرَةً فِي تَهْمِيْشِ أُمَّتِنَا وَتَحْييدِهَا عَنْ إِمْكَانَاتِ الفِعْلِ وَالتَّحَكُّمِ بِسَيْرُوْرَتِهَا وَصَيْرُوْرَتِهَا.

هذِهِ الصُّوْرَةُ الْمَأسَاوِيَّةُ دَفَعَتْ بِاليَأْسِ لِلتَّسَرُّبِ إِلَى النُّفُوْسِ، وَرُبَّمَا نُفُوْسِ الأَشِدَّاءِ، وَبَدَا أَنَّ الآمَالَ قَدْ تَقَطَّعَتْ بِهَا السُّبُلُ، وَأَنَّ القُنُوْطَ قَدْ تَمَلَّكَ القُلُوْبَ... وَأَنَّ الرَّجَاءَ أَوْشَكَ يَنْقَطِعُ وَالدُّعَاءُ...

وَفِي ظِلِّ هذِهِ الظُّرُوْفِ وَالْمُعْطَيَاتِ مِنَ العَبَثِ القَوْلُ إِنَّ هُنَاكَ نُقْطَةً مُحَدَّدَةً هِيَ الَّتِيْ يَجِبُ أَنْ تَكُوْنَ البِدَايَةَ فَالبِدَايَاتُ كَثِيْرَةٌ، وَأَيُّ بِدَايَةٍ سَتَؤَدِّيْ بِالضَّرُوْرَةِ إِلَى تَفْعِيْلِ غَيْرِهَا مِنَ البِدَايَاتِ، وَلِنَكُوْنَ مِنْ ثَمَّ عَلَى عَتَبَةِ الفِعْلِ. وَإِذَا كَانَت

البِدَايَاتُ مُتَكَافِئَةً نَظَرِيًّا مِنْ جِهَةِ الأَهَمِّيَّةِ وَالأَوْلَوِيَّةِ وَالقُدْرَةِ عَلَى الفِعْلِ، فَإِنَّ التَّرْبِيَةَ تَحْظَى بِشِبْهِ إِجْمَاعٍ عَلَى أَنَّهَا الأَكْثَرُ أَهَمِّيَّةً مِنْ بَيْنَ الْمَيَادِيْنِ كُلِّهَا. وَلا شَكَّ أَبَداً فِي أَهَمِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ، وَرُبَّمَا يَكُوْنُ كَلامُنَا فِيْ أَهَمِّيَّتِهَا مِنْ بَابَ تَعْرِيْفِ الْمُعَرَّفِ. وَإِذَا كُنَّا نُكَرِّرُ قَوْلَ **تِشْرْشِلْ** الشَّهِيْرِ: «لاَ تَخَافُوا عَلَى مُسْتَقْبَلِ بَرِيْطَانِيَا»[٣٣]. فَإِنَّنَا لا نُكَرِّرُهُ مِنْ بَابَ الاسْتِشْهَادِ بِأَهَمِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ وَإِنَّمَا نُكَرِّرُهُ بِحُكْمِ غُدُوِّهِ مِنَ البَدَاهَاتَ الَّتِي تُفْهَمُ بِذَاتِهَا مِنْ دُوْنِ حَاجَةٍ إِلَى غَيْرِهَا. وَلِذلِكَ يُمْكِنُ القَوْلُ الآنَ مِنْ دُوْنِ حَاجَةٍ إِلَى أيِّ تَحَفُّظٍ: لا شَكَّ فِيْ أَنَّهُ سَيَكُوْنُ مِنْ مَحْضِ السُّخْفِ التَّسَاؤُلُ عَمَّا إِذَا كُنَّا بِحَاجَةٍ إِلَى فَلْسَفَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ جَدِيْدَةٍ تَخْدِمُ الأُمَّةَ فِيْ ظُرُوْفِهَا الرَّاهِنَةِ، وَالظُّرُوْفِ الرَّاهِنَةِ للعَالَمْ.

رُبَّمَا يَصْعُبُ القَوْلُ إِنَّ أَهْدَافَ التَّرْبِيَةِ وَأَغْرَاضَهَا قَابِلَةٌ للاخْتِلافِ مِنْ زَمَانٍ إِلَى زَمَانٍ، وَلكِنْ قَلَّ مَنْ يُجَادِلُ فِي أَنَّ أَسَالِيْبَ التَّرْبِيَةِ وَأَدَوَاتِهَا وَآلِيَّاتِهَا خَاضِعَةٌ لِلمُعْطَيَاتِ الظَّرْفِيَّةِ وَالْمَرْحَلِيَّةِ. النِّصْفُ الأَوَّلُ الذِيْ هُوَ أَهْدَافُ التَّرْبِيَةِ وَأَغْرَاضُهَا يَنْطَوِيْ تَحْتَ عَبَاءَةِ الفَلْسَفَةِ التَّرْبَوِيَّةِ، والنِّصْفُ الثَّانِيْ الذِيْ هُوَ الأَسَالِيْبُ وَالأَدَوَاتُ وَالآلِيَّاتُ يَنْطَوِيْ تَحْتَ عَبَاءَةِ السِّيَاسَةِ التَّرْبَوِيَّةِ.

وَإِذَا كَانَ مِنَ الصَّعُوْبَةِ بِمَكَانٍ القَوْلُ إِنَّ الفَلْسَفَةَ التَّرْبَوِيَّةَ قَابِلَةٌ للاخْتِلافِ مِنْ زَمَانٍ إِلَى زَمَانٍ فَإِنَّهُ مِنْ قَبِيْلِ التَّطَرُّفِ الْمَحْضِ الزَّعْمُ بِالثَّبَاتِ الْمُطْلَقِ لأَيِّ فَلْسَفَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ فِيْ أَيِّ مُجْتَمَعٍ أَوْ أُمَّةٍ. وَإِذَا كَانَتْ فَلْسَفَاتُ الشُّعُوْبِ التَّرْبَوِيَّةُ فِيْمَا سَبَقَ مِنْ قُرُوْنٍ، وَحَتَّى أَوَاسِطِ القَرْنِ العِشْرِيْنَ مُتَّسِمَةً بِشَيءٍ مِنَ الثَّبَاتِ فَإِنَّ

---

(٣٣) . قيل لـ ونستون تشرشل إثر الحرب العالمية الثانية: إنَّ بريطانيا قَدْ انهارت بكلِّ بناها. فسأل عن حال القضاء والتربية، فقيل له: هذان هما الجانبان الوحيدان اللذان نجوا من آثار الحرب. فقال: إذن لا تخافوا على مستقبل بريطانيا.

الْمَرْحَلَةَ الْمُعَاصِرَةَ وَالقَادِمَةَ تَفْرِضُ عَلَى الأُمَّةِ الَّتِي تُرِيْدُ أَنْ تُحَقِّقَ ذَاتَهَا أَنْ تَتَمَتَّعَ فَلْسَفَتُهَا التَّرْبَوِيَّةُ بِشَيءٍ مِنَ الدِّيْنَامِيْكِيَّةِ وَالْحَيَوِيَّةِ. ذلِكَ أَنَّ الثَّبَاتَ الذِيْ كَانَتْ تَتَّسِمُ به الفَلْسَفَاتُ التَّرْبَوِيَّةُ سَابِقاً إِنَّمَا كَانَ كَذلِكَ لأَنَّ الذِيْ كَانَ يُقَرِّرُهُ هُوَ الوَعْيُ الْجَمْعِيَّ لهذا الشَّعْبِ أَوْ ذَاكَ، هذا الوَعْيُ النَّاجِمُ عَنِ الْمُسْتَوَىْ الْحَضَارِيِّ الذِيْ تَعِيْشُهُ الأُمَّةُ، وَيُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ الفَلْسَفَةَ التَّرْبَوِيَّةَ كَانَتْ تَتَقَرَّرُ بِنَوْعٍ مِنَ التَّلْقَائِيَّةِ الْمُسْتَنِدَةِ إِلَى الْحَامِلِ الدِّيْنِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَالأَخْلاقِيِّ... لهذِهِ الأُمَّةِ أَوْ تِلْكَ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ مَدَى انْتِظَامِ هذا الحَامِلِ الْمُكَوِّنِ لِعَقْلِيَّةِ الأُمَّةِ أَوْ عَدَمِ انْتِظَامِهِ. أَمَّا الآنَ وَمَعَ تَعَاظُمِ الثَّوْرَةِ العِلْمِيَّةِ وَالْمَعْلُوْمَاتِيَّةِ وَالتَّقَانِيَّةِ فَإِنَّ الأُمُوْرَ بَاتَتْ أَكْثَرَ تَعْقِيْداً مِمَّا سَبَقَ رُبَّمَا بِمَا لا يُقَاسَ، أَوْ يَصْعُبُ قِيَاسُهُ عَلَى الأَقَلِّ.

لَقَدْ كَانَ الشِّعَارُ الذِيْ رَفَعَهُ **بِلْ كِلِيْنْتُوْن** فِي حَمْلَتِهِ الانتِخَابِيَّةِ الَّتِي انْتَصَرَ فِيْهَا عَلَى الرَّئِيْسِ الأَسْبَقِ عَلَيْهِ **جورج بوش** هُوَ الانْطِلاقُ فِي التَّرْبِيَةِ مِنَ الْمَرْحَلَةِ الجَنِيْنِيَّةِ، بَلْ بَدْءاً مِنَ اليَوْمِ الأَوَّلِ مِنْ عُمْرِ الجَنِيْنِ. وَلَمْ يَعُدْ هذا الكَلامُ مَحْضَ شِعَارٍ عَلَى الإِطْلاقِ لأَنَّ الأُمَمَ الْمُتَقَدِّمَةِ مُنْذُ رَفَعَ **كلينتون** هذا الشِّعَارَ قَدْ انْخَرَطَتْ فِي التَّجَارِبِ العِلْمِيَّةِ الْجَادَّةِ مِنْ أَجْلِ بَدْءِ التَّرْبِيَةِ مُنْذُ اليَوْمِ الأَوَّلِ مِنْ عُمْرِ الجَنِيْنِ، وَكَانَ الاسْتِنْسَاخُ جُزءاً مِنْ سَيْرُوْرَةِ هذِهِ العَمَلِيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ الَّتِي وَصَلَتْ نَظَرِيًّا إِلَى البَدْءِ فِيْ تَرْبِيَةِ الإِنْسَانَ قَبْلَ التَّفْكِيْرِ فِي إِنْجَابِهِ أَصْلاً، وَقَبْلَ تَكَوُّنِهِ جَنِيْناً فِي رَحِمِ أُمِّهِ. الاسْتِنْسَاخُ مِنَ النَّاحِيَةِ التَّرْبَوِيَّةِ هُوَ تَصْمِيْمُ إِنْسَانٍ بِمُوَاصَفَاتٍ مُحَدَّدَةٍ قَبْلَ التَّفْكِيْرِ فِي الإِنْجَابِ... وَرُبَّمَا يُمْكِنُ لِلمَرْءِ مُنْذُ طُفُوْلَتِهِ أَنْ يَبَدَأَ بِرَسْمِ مَلامِحِ الابنِ الذِيْ يُرِيْدُ أَنْ يُنْجِبَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

لَيْسَ هذا خَيَالاً عِلْمِيًّا وَلا أَدَبِيًّا إِنَّهُ الوَاقِعُ الآنَ وَلَيْسَ غَداً... وَلا نَدْرِيْ إِنْ كَانَ هذا مِنْ حُسْنِ الْحَظِّ أَمْ مِنْ سُوْئِهِ!!

وَلِذلِكَ بَاتَ مِنَ الضَّرُوْرِيِّ جِدًّا أَنْ يُعَادَ النَّظَرُ فِي مَسْأَلَةِ الفَلْسَفَةِ التَّرْبَوِيَّةِ بِمَا يَنْسَجِمُ مَعَ مُتَطَلَّبَاتِ هذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيْقِ التَّوَازُنِ وَاللحَاقِ بِرَكْبِ الْحَضَارَةِ العَالَمِيَّةِ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ مِنْ ثَوْرَاتٍ تَقَانِيَّةٍ وَعِلْمِيَّةٍ وَمَعْلُوْمَاتِيَّةٍ مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ أَجْلِ بِنَاءِ القَاعِدَةِ الْمَتِيْنَةِ للانْطِلاقِ نَحْوَ الأَمَامِ؛ نَحْوَ الْمُسْتَقْبَلِ الذِيْ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ لائِقاً بِتَارِيْخِ أُمَّتِنَا وَعَبْقَرِيَّتِهَا وَإِمْكَانَاتِهَا. وَلِذلِكَ لَمْ يَعُدْ مِنَ الْجَائِزِ الآنَ التَّسَاؤُلُ عَمَّا إِذَا كُنَّا بِحَاجَةٍ إِلَى فَلْسَفَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ أَمْ لا.

لَيْسَ الْمَطْلُوْبُ هُوَ تَغْيِيْرُ القِيَمِ الَّتِي نَنْشِئُ عَلَيْهَا أَبْنَاءَنَا، فَسَنَظَلُّ نَنْشُدُ تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا عَلَى الفَضَائِلِ وَالقِيَمِ الإِيْجَابِيَّةِ؛ الدِّيْنِيَّةِ وَالأَخْلاقِيَّةِ وَالْجَمَالِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالاقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ... وَلكِنَّ الْمَطْلُوْبَ الآنَ هُوَ إِعَادَةُ النَّظَرِ فِي الأَوْلَوِيَّاتِ التَّرْبَوِيَّةِ، وَالتَّقْدِيْمَ وَالتَّأخِيْرَ فِي القِيَمِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَكُوْنَ أَوَّلاً وَأَكْثَرَ أَهَمِّيَّةً لِزَرْعِهَا فِي نُفُوْسِ النَشْءِ.

سَيَظَلُّ الصِّدْقُ مَطْلَباً تَرْبَوِيًّا، وَكَذلِكَ الأَمَانَةُ، وَالنَّظَافَةُ، وَالوَفَاءُ، وَالنَّزْعَةُ الإِنْسَانِيَّةُ، وَبِنَاءُ الشَّخْصِيَّةِ، وَالإِبْدَاعُ... وَغَيْرُ ذلِكَ، وَلكِنْ بِأَيِّ مَعْنًى سَتَكُوْنُ النَّزْعَةُ الإِنْسَانِيَّةُ الَّتِي نُرِيْدُهَا فِي ظِلِّ تَكَالُبِ الغَرْبِ عَلَى الأُمَّةِ العَرَبِيَّةِ؟ وَأَيُّ إِبْدَاعٍ هُوَ الذِيْ نُرِيْدُهُ مِنْ أَبْنَائِنَا فِي ظِلِّ تَخَلُّفِنَا الْمُزْرِيْ هذا؟ وَمِنْ ثَمَّ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ نُعَامِلَ الْمُبْدِعِيْنَ وَالنَّوَابِغَ وَالعُظَمَاءِ مِنْ أَبْنَائِنَا، وَمَا الذِيْ يَجِبُ أَنْ نُقَدِّمَهُ لَهُمْ؟ وَقَبْلَ ذلِكَ كُلِّهِ مَا الآلِيَّاتُ الأَنْجَعُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ نَلْجَأَ إِلَيْهَا وَنَعْتَمِدَهَا وَنَصْطَنِعَهَا إِنْ لَمْ تَكُنْ مَوْجُوْدَةً لِتَحْقِيْقِ هذا الْمَطْلُوْبِ؟

حَتَّى نَصِلَ إِلَى الآلِيَّاتِ الأَكْثَرَ نَجَاعَةً لِتَحْقِيْقِ مُرَادِنَا يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ مَنْ نَحْنُ؟ وَأَيْنَ نَحْنُ؟ وَإِلَى أَيْنَ نَسِيْرُ؟ وَمَاذَا نُرِيْدُ؟ وَمَا أَفْضَلُ السُّبُلِ لِلْوُصُوْلِ إِلَى مَا

نُرِيْدُ؟ وَمِنْ شَدِيْدِ الأَسَفِ أَنَّنَا مَازِلْنَا مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ قَرْنٍ نَتَسَاءَلُ هذِهِ الأَسْئِلَةِ الَّتِي رُبَّمَا يَضْحَكُ مِنْهَا الأَطْفَالُ الصِّغَارُ!!

أَسْئِلَةٌ تُضْحِكُ الصِّغَارَ وَتُبْكِيْ الكِبَارَ، وَلا غَرَابَةَ فِي ذلِكَ فَهِيَ أَسْئِلَةٌ تُعَبِّرُ عَنْ أَزْمَةِ الْهُوِيَّةِ الَّتِي تَعِيْشُهَا الأُمَّةُ، وَعِنْدَمَا تَعِيْشُ الأُمَّةُ؛ أَيُّ أُمَّةٍ، أَزْمَةَ الهُوِّيَّةِ، فَإِنَّهَا تَكُوْنُ فِي أَسْوَأِ حَالاتِهَا وَأَزْرَاهَا، وَرُبَّمَا قَلَّ مَنْ يُجَادِلُ فِي أَنَّ هذا هُوَ حَالُ أُمَّتِنَا العَرَبِيَّةِ اليَوْمَ.

أَنْ تَعِيْشَ الأُمَّةُ أَزْمَةَ هُوِيَّةٍ لا يَعْنِيْ أَنَّ الإِجَابَةَ عَلَى هذِهِ الأَسْئِلَةِ صَعْبَةٌ، أَوْ مُعَقَّدَةٌ، لأَنَّ هُوِيَّةَ أَيِّ أُمَّةٍ، طَالَمَا هِيَ أُمَّةٌ، لَيْسَتْ مُشْكِلَةً أَبَداً. وَالحَقِيْقَةُ أَنَّ هذِهِ الأَسْئِلَةِ حَظِيَتْ بِكَثِيْرٍ مِنَ الإِجَابَاتِ غَيْرِ الْمُتَبَاعِدَةِ مِنْ مُخْتَلَفِ الْمُفَكِّرِيْنَ وَالاتِّجَاهَاتِ الفِكْرِيَّةِ. وَرُبَّمَا، إِنْ لَمْ يَكُنْ مُؤَكَّداً، لَنْ نُصَادِفَ كَثِيْراً مِنَ الْجُهْدِ وَالعَنَاءِ لِلوُصُوْلِ إِلَى اتِّفَاقٍ عَلَى إِجَابَاتٍ لِهذِهِ الأَسْئِلَةِ. وَرُبَّمَا كَذلِكَ لَنْ يَكُوْنَ هُنَاكَ كَثِيْرَ عَنَاءٍ فِي وَضْعِ أَوْ الوُصُوْلِ إِلَى سِيَاسَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ نَاجِعَةٍ لِتَحْقِيْقِ الأَهْدَافِ الْمَنْشُوْدَةِ، وَلا سِيَّمَا أَنَّ تُرَاثَ الإِنْسَانِيَّةِ التَّرْبَوِيِّ كُلَّهُ مُتَاحٌ لِلمُفَكِّرِيْنَ وَالْمُنَظِّرِيْنَ وَالْمُشَرِّعِيْنَ، وَإِمْكَانِيَّةَ التَّفَاعُلِ بَيْنَ هذِهِ الفِرَقِ الثَّلاثِ مُتَاحَةٌ بِالْيُسْرِ الشَّدِيْدِ.

وَبِالإِضَافَةِ إِلَى ذلِكَ فَإِنَّ مَزَايَا عَصْرِنَا؛ عَصْرِ العَوْلَمَةِ وَالتَّدَفُّقِ الْمَعْلُوْمَاتِيِّ وَالثَّوْرَةِ التِّقَانِيَّةِ... تُقَدِّمُ فَوَائِدَ جِدِّ كَثِيْرَةٍ فِي هذا الإِطَارِ، وَتَنْطَوِيْ عَلَى فُرَصٍ تَنْتَظِرُ مَنْ يُحْسِنَ اسْتِغْلالَهَا فِي جَمِيْعِ الْمَيَادِيْنِ، فَإِذَا مَا انْتَبَهْنَا إِلَى ذلِكَ أَمْكَنَنَا أَنْ نَخْتَصِرَ كَثِيْراً مِنَ الْمَسَافَاتِ... وَلَيْسَ كُلُّ مَا يُعْرَفُ يُقَالُ!!

وَفِي الوَقْتِ ذَاتِهِ يَجِبُ أَنْ نَنْتَبِهَ إِلَى مَا يَنْطَوِيْ عَلَيْهِ عَصْرُنَا الْمَوْسُوْمُ بِعَصْرِ العَوْلَمَةِ مِنْ مَخَاطِرَ وَتَهْدِيْدَاتٍ لِخُصُوْصِيَّتِنَا وَهُوِّيَتِنَا، وَحَاضِرِ أُمَّتِنَا وَمُسْتَقْبَلِنَا... وَكُلُّ ذلِكَ أُمُوْرٌ كَثُرَتِ الدِّرَاسَاتُ فِيْهَا وَالأَبْحَاثُ الَّتِي تُغْنِيْ عَنِ الْمَزِيْدِ!!

عَلَى أنَّ أَكْثَرَ مَا يَجِبُ الوُقُوْفُ عِنْدَهُ وَالتَّرْكِيْزُ عَلَيْهِ هُوَ ضَرُوْرَةُ أَنْ نَنْطَلِقَ أَسَاسـاً مِـنْ دِرَاسَـةٍ مِنْهَجِيَّـةٍ وَاعِيَـةٍ بَعِيْـدَةٍ كُـلَّ البُعْـدِ عَـنِ الارْتِجَـالِ وَالتَّخَـبُّطَ وَالعَشْوَائِيَّة. وَمرَّة أُخْرَى أَقُوْلُ إِنَّ هذا الْمَطْلَبَ غَيْرُ مُعْجِزٍ، وَالدِّرَاسَاتُ وَالأَبْحَاثُ اللازِمَـةُ كُلُّهَـا مُتَـوَافِرَةٌ، وَرُبَّمَـا لَمْ يَتَكَـاثَفْ عَلَيْهَـا حَـتَّى الآنَ مِـنَ الغُبَـارِ مَـا يَكْفِـيْ لِتَغْطِيَتِهَا أَوْ حَجْبِهَا عَنِ النَّظَرِ.

هُنَـا سَـيَبْرُزُ السُّـؤَالُ الْمُهِـمُّ: لِمَـاذَا إِذَنْ لَـيْسَ هُنَـاكَ سِيَاسَـةٌ تَرْبَوِيَّـةٌ تَضَـعُ نُصْـبَ عَيْنَهِـا مَصْـلَحَةَ الأُمَّـةِ؟ وَلِمَـاذَا لا تُوْضَـعُ هـذِهِ السِّيَاسَـاتُ التَّرْبَوِيَّـةُ قَيْـدَ التَّنْفِيْذِ؟

إِنَّ نَفْـيَ وُجُـوْدِ سِيَاسَـةٍ تَرْبَوِيَّـةٍ أَمْرٌ غَيْـرُ مُمْكِـنٍ أَبَداً، وإِنَّمَـا الشَّـكَّ مُنْصَـبٌّ عَلَى قِيْمَـةِ هـذِهِ السِّيَاسَـةِ التَّرْبَوِيَّةِ وَعَلَى الأَهْدَافِ الَّتِي تَسْعَى إِلَى تَحْقِيْقِهَا. فَقَدَ انْزَلَقَتْ مُعْظَمُ السِّيَاسَاتِ القُطْرِيَّةِ فِي مَزْلَقِ تَكْرِيْسِ القُطْرِيَّةِ عَلَى حِسَابِ القَوْمِيَّةِ، وَتَعْزِيْـزِ التَّجْزِيْئِيَّـةِ عَلَـى حِسَـابِ الوُحْدَوِيَّـةِ، وَالفَرْدِيَّـةِ عَلَـى حِسَـابِ الجَمْعِيَّـةِ، وَهـذا كُلُّـهُ مِمَّـا انْعَكَـسَ بِالسَّـلْبِ عَلَـى البُنْيَـةِ النَّفْسِـيَّةِ للمُـوَاطِنِ العَـرَبِّي فِي مُخْتَلَـفِ مَنَـاحِيْ خَصَـائِصِ الشَّخْصِيَّةِ، وَانْعَكَسَ مِـنْ ثَمَّ عَلَى الْمَـرْدُوْدِ التَّرْبَـوِيِّ الكُلِّـيِّ لِمَجْمُـوْعِ الأُمَّـةِ... نَاهِيْـكَ عَـنْ تَهَتُّـكِ عَلاقَاتِهَـا وَتَكَامُلِيَّاتِهَـا مَـعَ الـدُّوَلِ الإِسْلامِيَّةِ.

وَعَلَى ذلِكَ لَمْ يَعُدْ مِنَ الصَّعْبِ القَوْلُ إِنَّ الْمَطْلُوْبَ أَنْ يَسْعَى السِّيَاسِيُّوْنَ العَرَبُ بِصِدْقٍ وَوَعْيٍ وَعِلْمٍ لِتَحْقِيْقِ الْمَصَالِحِ العَرَبِيَّةِ، وَتَغْلِيْبِ الْمَصَالِحِ العُلْيَا عَلَى الْمَصَالِحِ الدُّنْيَا، وَتَقْدِيْمِ الْمَصَالِحِ العَامَّةِ عَلَى الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ... وَكُلُّ ذلِكَ مِنَ الأَهْدَافِ التَّرْبَوِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُؤْخَذَ بِعَيْنِ النَّظَرِ فِيْ سِيَاسَتِنَا التَّرْبَوِيَّةِ.

فَإِذَا مَا تَحَقَّقَ ذلِكَ كُنَّا فِعْلاً عَلَى نُقْطَةِ البِدَايَةِ الْحَقِيْقِيَّةِ، بَلْ فِيْ بِدَايَةِ الْمَسارِ الَّذِيْ يُوْصِلُنَا إِلَى تَحْقِيْقِ مَصَالِحِنَا، لأنَّ مَا سَيَبْقَى بَعْدَ ذلِكَ سَيَكُوْنُ سَهَلاً، حَتَّى لَوْ تَتَابَعَتِ الأمُوْرُ بَعْدَ ذلِكَ تَتَابُعاً تَلْقَائِيًّا كَمَا كَانَ يَحْدُثُ فِي القُرُوْنِ الخَالِيَةِ. مِنْ دُوْنَ أَنْ يَعْنِي ذلِكَ جَوَازَ تَرْكِهَا تَجْرِيْ عَلَى خَبْطِ عَشْوَائِهَا وَتَلْقَائِهَا... وَإلا نَدِمْنَا، وَلاتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ.

* * *

* * *

فـــي ثـــوب الخاتمة

إِنَّ مَا تَقَدَّمْنَا بِهِ مِنْ آرَاءَ وَأَفْكَارٍ وَمَوَاقِفَ ... وَهِي فِي جُمْلَتِهَا رُؤيَةٌ وَاحِدَةٌ لِمَشْرُوعٍ ضَخْمٍ هَائِلٍ لاَ يَتَوَقَّفُ عِنْدَ رَأيِنَا وَرُؤيَتِنَا بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى كُلِّ جُهُودِ أَبْنَاءِ الأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ صَغِيرِهِم إِلَى كَبِيرِهِم، وَمِنْ وَضِيعِهِم إِلَى عَزِيزِهِم، وَمِن جَاهِلِهِم إِلَى كَبِيرِ مُثَقَّفِيهِم ... لأَنَّ الْمُرَادَ خَطِيرٌ وَالْعِبءُ كَبِيرٌ وَالدَّرْبُ قَصِيرٌ، وَهَذَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُكَرَّرَ عَلَى الأَسْمَاعِ حَتَّى يَصُمَّ آذَانَ مَنْ يُصِرُّ عَلَى مَحْضِ سَمَاعِهِا وَعَدَمِ الأَخْذِ بِمَضْمُونِهَا.

قَدْ يَذْهَبُ بَعْضٌ قَلِيلٌ أَوْ كَثِيرٌ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ مَا ذَهَبْنَا إِلَيهِ مُجَرَّدُ حَمَاسٍ وَانْدِفَاعٍ لاَ طَائِلَ لَهُ، وَالْحَقُّ أَنِّي لاَ أُنْكِرُ هَذِهِ التُّهْمَةِ إِنْ كَانَتْ تُهْمَةً، وَإِنَّهَا لَتُهْمَةٌ مُشَرِّفَةٌ، وَلَكِنْ لاَ بُدَّ مِنَ الإِشَارَةِ هُنَا إِلَى أَنَّ هَذَا الْحَمَاسَ وَالانْدِفَاعَ، هُوَ وَحْدُهُ الَّذِي أَنْهَضَ الْعَرَبَ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَثَانِي مَرَّةٍ، وَهُوَ الَّذِي أَنْهَضَ الْيُونَانَ، وَأَنْهَضَ دُوَلَ أَوْرُبَا، وَأَقَامَ أَمَرِيكَا، وَأَنْشَأَ الاتِّحَادَ السُّوفِيَاتِيِّ، وَهُوَ الَّذِي أَوْقَفَ اليَابَانَ فِي مُقَدِّمَةِ الدُّوَلِ الصِّنَاعِيَّةِ، وَهُوَ الَّذِي ... وَهُوَ الَّذِي يَفْعَلُ الْعَجَائِبَ. وَمَا إِنْكَارُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ إِلاَّ ضَرْباً مِنَ التَّجْذِيفِ وَالتَّأَلِّي عَلَى الْحَقِّ.

وَإِذَا مَا غَضَضْنَا النَّظَرَ عَنْ هَذَا الاحْتِجَاجِ وَجَدْنَا أَمَامَنَا بِضْعَ نِقَاطٍ تَسْتَحِقُّ أَنْ تُثَارَ هُنَا، وَهِيَ:

أَوَّلاً :

نَحْنُ نُشَجِّعُ الْفَرْدِيَّةَ؛ فَرْدِيَّةَ الْمُرَبِّينَ وَالْمُتَرَبِّينَ وَنَدْعُو إِلَيهَا، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْفَرْدِيَّةُ بِشِقَّيهَا وَاعِيَةً مُنْفَتِحَةً خَلاَّقَة لاَ فَرْدِيَّةَ الانْغِلاَقِ التَّقَوْقُعِيِّ وَالْغُرُورِ الاسْتِبْدَادِيِّ.

ثَانِيَاً :

يَجِبُ أَنْ تَعِيَ الطَّبَقَاتُ الْعَرَبِيَّةُ الْحَاكِمَةُ حَقِيقَةَ مَوْقِعِهَا وَمَكَانِهَا وَمَكَانَتِهَا وَمَوْقِفِهَا مِنَ الأُمَّةِ وَالشَّعْبِ، وَأَنْ تُدْرِكَ أَنَّ تَطَوُّرَ الأُمَّةِ وَقُوَّتَهَا وَعِزَّتَهَا وَمَنَعَتَهَا مُنْعَكِسٌ كُلُّهُ بِكُلِّ خَيْرِهِ عَلَى الْجَمِيعِ بِمَنْ فِيهِمُ الطَّبَقَاتُ الْحَاكِمَةُ ذَاتُهَا، شَرِيطَةَ أَنْ يَكُونَ الْحُكَّامُ مِنَ الأُمَّةِ فِعْلاً، أَعْنِي حَقِيقَةَ الانْتِمَاءِ لاَ شَكْلَهُ.

ثَالِثَاً :

مِنْ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَتَضَافَرَ كُلُّ الْجُهُودِ وَالإِمْكَانَاتِ وَتَتَكَامَلَ مِنْ أَجْلِ بُلُوغِ هَذَا الْمَطْمَحِ الأَمَلِ، بِمَعْنَى وُجُوبِ أَنْ يَكُونَ كُلُّ إِنْسَانٍ رَقِيباً وَمَسْؤُولاً. وَلَكِنْ: أَلَيْسَ هَذَا الطَّرِيقُ إِلَى تَحْقِيقِ الأَمَلِ بِهَذَا الْمَعْنَى أَصْعَبَ مِنْ تَحْقِيقِ الأَمَلِ ذَاتِهِ ؟ الْحَقَّ أَنَّ كَوْنَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَسْؤُولاً وَرَقِيباً أَمْرٌ وَاضِحُ الْمُبَالَغَةِ وَلَكِنَّهُ لَيْسَ عَينَ الْمَقْصُودِ؛ إِنَّهُ الْغَايَةُ وَلَيْسَ الْوَسِيلَةَ، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ بِعُمُومِ الْمَسْؤُولِيَّةِ هُمُ الْمُثَقَّفُونَ عَلَى اخْتِلاَفِ مُسْتَوَيَاتِهِم وَانْتِمَاءَاتِهِم.

رَابِعَاً :

إِنَّ أَهَمَّ مَا يَعْتَرِضُ سَبِيلَ هَذَا الْمَشْرُوعِ أَوْ أَيِّ مَشْرُوعٍ بَدِيلٍ هُوَ غِيَابُ الْمُحَاسَبَةِ، وَتَعْطِيلُ الْقَانُونِ. إِنَّ وَضْعَ كُلِّ النَّاسِ سَوَاسِيَةً تَحْتَ سُلْطَةِ الْقَانُونِ وَمُحَاسَبَةَ كُلِّ مُقَصِّرٍ وَمُخْطِئٍ مُحَاسَبَةً رَادِعَةً هُمَا عِمَادُ قِيَامِ الأُمُمِ، وَنُسْغُ قُوَّتِهَا، وَمَاءِ دَيْمُومَتِهَا. وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَنْتَبِهَ الْجَمِيعُ إِلَى هَاتَيِنِ الْمَسْأَلَتَيِنِ وَيُصِرُّونَ عَلَيْهِمَا، وَعَلَى حِمَايَتِهِمَا حِمَايَةً شَدِيدَةً وَثِيقَةً فِي الدَّسَاتِيرِ.

* * *

مسرد الأَعلام

آلِ مِيْدِيْتْشِي ـ Médicis : ١٣

أَبُو دُلاَمَةَ : ٢٣

إِرْنِسْت لاَفِيْس ـ E. Lavisse : ١٤

بل كلينتون: ٥٥

بُوْدْلِيْر ـ Baudelire: ١٢، ١٥،

جان توشار ـ Jean Touchard : ١٢، ١٣، ١٤، ٤٠

جيل دلوز ـ Gilles Deleuze : ٢٠

جوته : ٦

جُوْرج بُوش : ٣٨، ٥٥

حسن خليفة : ١٢، ١٣

رِيْتْشَارَدْ فَاجْنَر ـ R. Vagnar : ١٥، ١٦

زَرَادِشْت ـ Zarathustra : ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٤٠

شُوْبِنْهَوَر ـ Schopenhauer : ١٨

صبحي حمدان أَبو جلال : ٣٠، ٣١

عَادِلُ العَوَّا : ١٤، ٣٧، ٤٠، ٥٠

فليكس فارس: ١٧

فُوْلْبْرِايت : ٢٢
لُوْرَانْت ـ Laurant : ١٣
مَايْكِلْ أَنْجْلُو : ٤٩
مِكْيَافِيْلِّي ـ Machiavelli: ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ٢٥، ٣٩
ناجي الدَّراوشة : ١٢
هدى حسين : ١٢
وِنْسْتُون تِشِرْشِل : ٣٨، ٥٣
يوسف كرم : ١٦، ١٨، ٢٠
نِيْتْشِه ـ Nietzche: ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٥، ٣٩

* * *

ثبت المصادر والمراجع

- بودلير: **يوميَّات بودلير؛ طلقات** . ترجمة: هدى حسين . ضمن مجلة: القاهرة . الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب . العدد ١٦٢ .
- جان توشار: **تاريخ الأَفكار السِّياسيَّة** . ترجمة د. ناجي الدَّراوشة . وزارة الثَّقافة . دمشق . ١٩٨٤م.
- جيل دلوز: **المعرفة والسُّلطة؛ مدخل لقراءة فوكو** . ترجمة؛ سالم يفوت . المركز الثَّقافي العربي . بيروت/الدَّار البيضاء . ط ١ . ١٩٨٧م.
- حسن خليفة: **تاريخ النَّظريَّات السياسية وتطورها** . مصر . ١٩٣٥م.
- د. صبحي حمدان أَبو جلال: **دور التَّربية في تجاوز أَزمات العصر** . ضمن مجلة: المعرفة . العدد ٣٧٠ . تموز/يوليو ١٩٩٤م.
- د.عادل العوا: **تربية المربين** . ضمن مجلة: المعلم العربي . وزارة المعارف السُّوريَّة . العدد ٢ . السَّنة ٢ . صفر ١٣٦٨هـ/كانون الأَوَّل ١٩٤٨م.
- د.عادل العوَّا : **سياسة تربويَّة** . ضمن مجلة: المعلِّم العربي . وزارة المعارف السُّوريَّة . العدد ٣ . السَّنة ٩ . جمادى الآخرة ١٣٧٥هـ/كانون الثَّاني ١٩٥٦م.
- د.عادل العوَّا : **فلسفة تربويَّة** . ضمن مجلة: المعلِّم العربي . وزارة المعارف السُّوريَّة . العدد ٢.١ . السَّنة ٩ . ربيع الثَّاني وجمادى الأُولى ١٣٧٥هـ/تشرين الثَّاني وكانون الثَّاني ١٩٥٥م.

- د.عادل العوَّا : **مقدِّمات الفلســـفة** . منشورات جامعة دمشق . ١٩٨٦م.
- عزت السيد أَحمد: **النِّــظام الاقتصــادي العالمي الجــديد** . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- نيتشه: **هكذا تكلَّم زرادشت** . ترجمة: فليكس فارس . دار أُسامة . دمشق/بيروت . د.ت.
- يوســف كرم: **تاريخ الفلســـفة الحديثة** . دار القلم . بيروت . د.ت.

صدر من كتب المؤلّف

أوّلاً: في الفلسفة والنّقد

١ ـ فلسفة الفنّ والجمال عند ابن خلدون ـ دار طلاس ـ دمشق ـ ١٩٩٣م.

٢ ـ علم الجمال المعلوماتي؛ نحو نظريَّة جديدة ـ دار الأَصالة للطِّباعة ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.

٣ ـ دفاعٌ عن الفلسفة؛ الفلسفة ثرثرةٌ أَم أُمُّ العلوم ـ دار الأَصالة للطِّباعة ـ ١٩٩٤م.

٤ ـ هؤلاء أَساتذتي؛ من روَّاد الفكر العربي المعاصر في سوريا ـ دار الثَّقافة ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.

٥ ـ انهيار الشِّعر الحر ـ دار الثَّقافة ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.

٦ ـ انهيار دعاوى الحداثة؛ الحداثة ضرورة تارخيَّة لا خِيار سياسي ـ دار الثَّقافة ـ دمشق ـ ١٩٩٥م.

ثانياً: في السّياسة

٧ ـ كيف ستواجه أَمريكا العالم؟؛ الهيمنة الأَمريكيَّة والنِّظام العالمي الجديد ـ دار السَّلام للطِّباعة ـ دمشق ـ ١٩٩٢م.

٨ . الأُمم المتَّحدة بين الاستقلال والاستقالة والتَّرميم؛ مأزق الأُمم المتَّحدة في النِّظام العالمي الجديد . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.

٩ . النِّظام الاقتصادي العالمي الجديد؛ من حرب الأَعصاب إلى حرب الاقتصاد . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م.

١٠ . حقيقة العولمة وأبعادها؛ من حرب الاقتصاد إلى الاقتصاد الشَّامل . قيد الطِّباعة.

ثالثاً: الشّعر

١١ . لا تعشقيني . دار الأَصالة للطِباعة . دمشق . ١٩٩٤م.

١٢ . أَنا صدى الليل . دار الأَصالة للطِّباعة . دمشق . ١٩٩٥م.

١٣ . أُنشودة الأَحزان . دار الأَصالة للطِّباعة . دمشق . ١٩٩٦م.

١٤ . أَميرة النَّار والبحار . دار الأَصالة للطِّباعة . دمشق . ١٩٩٦م.

رابعاً: القصَّة

١٥ . الدَّخيل على المصلحة (قصص) . ن.م . دمشق . ١٩٩٣م.

١٦ . الموت بدون تعليق (قصص قصيرة جدًّا) . دار الأَصالة لطِّباعة . دمشق . ١٩٩٤.

١٧. غاوي بطالة (قصص قصيرة) . دار الأَصالة للطِّباعة . دمشق . ١٩٩٦م.

رابعاً: الجمع والإعداد

١٨ ـ بديع الكسم ـ وزارة الثَّقافة ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.

١٩ ـ عادل العوَّا في فكره التَّربويِّ ـ قيد الطِّباعة.

٢٠ ـ البحيري بأقلام معاصريه (عدَّة أَجزاء) ـ قيد الطِّباعة.

٢١ ـ قراءات في فكر بديع الكسم ـ قيد الطِّباعة.

* * *

* * *

المشتمل

. الإهـــداء..... ٥

. مـــدخل ٧

مسوِّغات المكيافيلية والنِّيتشويَّة ٩

أَولا: تقويض المناهج التَّقليديَّة ٢٧

ثانياً: عصف عقول المربِّين ٣٣

ثالثاً: التَّربية وكلية التَّربية ٤١

رابعاً: التَّدريب المستمر ٤٧

خامساً: نحو فلسفة تربوية جديدة..... ٥١

في ثوب الخاتمة ٦١

مسرد الأَعلام ٦٥

ثبت المراجع ٦٧

صدر للمؤلف ٦٩

المشتمل ٧٣

* * *

دار الفكر الفلسفي
للدراسات والترجمة والنشر
دمشق - ١٩٩٨م